بين العقل والإيمان

الجزء الأول

كيف نفهم إعلان الله؟

بقلم د. هيرمان بافينك

ترجمة

د. عبد المسيح أسطفانوس

All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة – الرجاء التقيد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو إليكترونية أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن خاص ومكتوب من الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل.
يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي فقط وليس بهدف بيعها
أو المتاجرة بها بأي طريقة كانت ومهما كانت الأسباب.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المحتويات

تقديم

الفصل الأول: خير الإنسان الأسمى

الفصل الثاني: معرفة الله

الفصل الثالث: الإعلان العام

الفصل الرابع: قيمة الإعلان العام

الفصل الخامس: أسلوب الإعلان الخاص

الفصل السادس: مضمون الإعلان الخاص

الفصل السابع: الكتب المقدسة

الفصل الثامن: الكتاب المقدس وإقرار الإيمان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تقديم

عزيزي القارئ:

منذ أن ظهر كتاب "نظام التعليم في علم اللاهوت القويم" عـــام 1888، والذي أعيد طبعه كما هو بعنوان "علم اللاهوت النظامي" في السبعينات، لم يظهر في العربية حتى اليوم كتاب آخر يصلح مرجعاً لاهوتياً لكل من يرغب في دراسة علم اللاهوت من زاوية إنجيلية. لقد ظهرت فعلاً بعض الكتابات، لكننا لا يمكن أن نعتبر أيّاً منها مرجعاً لاهوتياً.

وقد خدم كتاب "نظام التعليم في علم اللاهوت القويم" عدة أجيال ومـــا زالت أجزاء كبيرة منه تصلح مرجعاً لاهوتياً مفيداً. إلا أن من يتصفحه يلمح على الفور أنه يقرأ كتاباً مصوغاً في إطار فكري يعود بالقارئ إلى قرن مضى، سواء من حيث المفردات أو القالب الفكري أو حتى المضمون.

لذلك كانت الحاجة ملحة لأن يتوفر للقارئ العربي ولكل من يرغـــب في الاستزادة من العلوم اللاهوتية، كتاب يتحدث بلغة العصر في صياغة حديثة ويُعـــنى بالموضوعات المعاصرة.

ظهر الكتاب الذي بين يديك باللغة الهولندية أوّلاً عـــام 1909 بعنـــوان "أعمال الله الرائعة" ثم ترجم إلى الإنجليزية بعنوان "إيماننا المعقول" ونشر عام 1956

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ثم أعيد طبعه عدّة مرات. ورغم أن هذا الكتاب لا يتفاعل مع مؤثرات فكرية كثيرة ظهرت بعد كتابته، فهو يقدّم لنا صياغة لاهوتية أقرب إلى العصر الذي نعيش فيه، والجو الفكري الذي يحيط بنا.

ومؤلف الكتاب عالم لاهوت هولندي مرموق قام بتدريس مادة علم اللاهوت خلاصتها في الكتاب الذي بين يديك. ويلاحظ القارئ أن الكتاب يشمل دراسة ملتزمة للكتاب المقدس، ولذلك فهو غني بالإشارة إلى الآيات الكتابية التي نرجو أن يلاحظ أنها ليست دائماً بنصها الحرفي كما هو، لأن الاقتباسات في كثير من الأحيان اقتباسات تفسيرية.

والجزء الأول الذي بين يديك تتبعه أجزاء أخرى تظهر تباعاً نصلي أن تكون سبب بركة كبيرة لمجد الله ولخير كنيسته.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الأول

خير الإنسان الأسمى

الله وحده هو الخير الأسمى للإنسان. ويمكن القول بصورة عامة إن الله هو الخير الأسمى لكافة خلائقه. فالله هو الذي خلق كل الأشياء، وهو الذي يعتني بها، وهو مصدر كل وجود الحياة، والينبوع الذي يفيض بكل خير. فالخلائق كلها مدينة له وحده بوجودها وبقائها. فهو الواحد السرمدي الموجود في كل مكان.

وفكرة الخير الأسمى هذه تتضمن عادة إدراك الخلائق نفسها لهذا الخير وتمتعها به. وطبيعي ألا ينطبق هذا على الجماد والمخلوقات غير العاقلة، فالجماد له وجود فقط ولكن ليست له حياة. ومخلوقات أخرى مثل النباتات لها حياة لكنها مجردة تماماً من أي وعي أو إدراك. أما الحيوانات فقد منحت بالإضافة إلى وجودها وحياتها نوعاً من الإدراك. إلا أن إدراكها يقتصر على الأمور المرئية والحسية المحيطة بها. فهي قد تدرك الأرضيات لا السماويات وتعي ما هو موجود وملذ ونافع وهي راضية بذلك وهانئة، ولكن لا إلمام لها بالحق والخير والجمال ولا تعي شيئاً من الأمور الروحية.

أما بالنسبة للإنسان فالأمر يختلف تماماً. فقد خلقه الله منذ البداية على صورته وشبهه، ولا يمكنه أن يحطم أو يمحو كلية تلك العلاقة. ورغم أنه بسبب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الخطية، فقدَ سجايا المعرفة والبر والقداسة. التي تشملها صورة الله، فإن بقية صغيرة من الهبات التي نالها عند الخليقة مازالت عنده. وهذا يكفي لا ليظهر ذنبه فحسب، بل ليشهد على عظمته السابقة، وليذكره دائماً بخطة الله لحياته ومصيره السماوي. فمن الواضح أن الإنسان في كل تفكيره وعمله وحياته وكافة أنشطته لا يشبعه العالم المادي كله ولا يرضيه. فالإنسان في أعماقه يرنو إلى ما هو أسمى. فهو يحيا على الأرض وله اهتمامات طبيعية، لكنه يسمو فوق هذه الأمور الأرضية نحو ما هو أسمى وأرقى. أنه يقف بقدم ثابتة على الأرض ورأسه مرفوع نحو العلاء، وعيناه تتطلعان إلى فوق في اتجاه عمودي. وهو يعي الأشياء المرئية التي ترتبط بالزمن، لكنه لا يستطيع أيضاً أن يدرك الأمور غير المنظورة والأبدية. وتتجه رغبته حيناً نحو الأرضيات والحسيات والأمور العابرة، ولكنها تتجه أحياناً أخرى نحو السماويات والروحيات والأمور الباقية.

فالإنسان يشارك الحيوان في إدراكه ووجدانه الحسيين، لكنه وهب بالإضافة إلى هذه الخصال فهماً ومنطقاً يمكنانه من التفكير، ويرتفعان به من عالم الصور الحسية إلى عالم المعرفة الروحية والأفكار الأبدية. ومع أن تفكير الإنسان ومعرفته محدودان بعقله، فإنهما في جوهرهما نشاط روحي يسمو كثيراً عن الأشياء التي يراها بعينه ويلمسها بيده. وعن طريق التفكير يوطّد الإنسان علاقته بعالم غير منظور، رغم كونه عالماً حقيقياً فيه من الحقيقة الجوهرية ما يفوق كثيراً مادية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الأرض. إن ما يسعى إليه فعلاً ليس حقيقة محسوسة بل هو حق روحي، حق واحد سرمدي لا يزول. إن عقله لا يجد راحته إلا في هذا الحق الإلهي المطلق.

فالإنسان يشارك الحيوان في رغباته الحسية، إذ يشعر بالحاجة إلى الطعام والشراب، إلى النور والهواء، إلى العمل والراحة، ويعتمد في وجوده المادي اعتماداً كبيراً على الأرض، ومنتجاها. غير أنه على مستوى أعلى من تلك الرغبات الحسية، فقد أعطاه الله إرادة تتوق إلى خير آخر أسمى، يرشدها عقله وضميره. صحيح أن للنافع والملذ قيمة في بعض الظروف، إلا أنه لا يشبع نفسه، لذلك فهو يسعى لا إلى خير وليد الظروف، بل إلى الخير في ذاته ولأجل ذاته، الخير غير المتغير الروحي الأبدي. وإرادة الإنسان تستطيع أن تجد راحتها في هذا الخير الإلهي الرفيع المطلق ولا سواه.

يعلّمنا الكتاب المقدس أن للعقل والإرادة جذوراً في قلب الإنسان. فيقول الحكيم: "فوق كل تحفظ احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة" (أم 4:23). فالقلب هو المصدر والقوة الدافعة للدورة الدموية. ومن الناحية الروحية الأخلاقية فإن القلب، كما يقدمه الكتاب المقدس، هو مصدر حياة الإنسان الأسمى ومركز حياتنا الواعية وعلاقتنا بالله وخضوعنا لشريعته. وخلاصة القول أن القلب هو مركز طبيعتنا الروحية الأخلاقية بكاملها، لذلك فهو يتحكم في حياتنا العقلية والإرادية بجميع نواحيها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ويعلّمنا الوحي الإلهي أن الله "صنع الكل حسناً في وقته، وأيضاً جعل الأبدية في قلبهم، التي بلاها لا يدرك الإنسان العمل الذي يعمله الله من البداية إلى النهاية" (جا 3:11) فهو يصنع كل شيء حسناً في وقته المناسب. والتاريخ بكليته وتفاصيله إنما يجري بمشورة الله، وأحداثه تعلن عن مجد هذه المشورة. ولقد وضع الله الإنسان في وسط هذا العالم وجعل الأبدية في قلبه، فلا يستريح في الظواهر المرئية الخارجية، بل يسعى نحو معرفة مقاصد الأبدية من خلال الطبيعة وأحداث التاريخ.

هذا الشوق إلى النظام الأبدي الذي جعله الله في قلب الإنسان وفي أعماق كيانه وجوهر شخصيته هو سبب هذه الحقيقة التي لا نزاع فيها. إن كل ما يمت إلى النظام الزمني بصلة لا يشبع نفسه. فهو يعتمد على الحواس، وهو أرضي محدود وزائل، ومع ذلك فهو منجذب إلى ما هو أبدي، كما أن هذا محتوم له. ولا يجدي الإنسان نفعاً أن يربح زوجةً وأولاداً وبيوتاً وحقولاً وأملاكاً ومقتنيات، أو حتى العالم كله، إذا كان سيخسر نفسه في المقابل (مت 16:26) لأن العالم كله لا يمكن أن يوازي قيمة الإنسان. ولا يوجد من بلغ به الثراء حداً عنده يستطيع بأية وسيلة أن يفتدي نفس أخيه، أو أن يقدم لله فدية عنه، ففداء النفس أثمن من أن يبلغه أي مخلوق (مز 49: 7- 9).

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كثيرون يبدون استعداداً للتسليم بذلك تماماً في ما يتعلق بالمسرات الحسية والكنوز الأرضية. وهم على استعداد لأن يقروا بأن مثل هذه الأشياء لا تشبع الإنسان ولا توافق مصيره السامي. ولكنهم يقوّمون الأمور بصورة مختلفة عندما يتحدثون عمّا يسمى بالقيم المثالية، كالعلم والفن والثقافة والخير والجمال وبذل النفس لأجل الآخرين. إلا أن هذه الأشياء عينها تنتمي أيضاً على العالم الذي يقول عنه الكتاب المقدس أنه هو وشهوته يمضيان (1يوحنا 2: 17). إن العلم والمعرفة والتحصيل كلها بالتأكيد عطايا صالحة يغدقها الله علينا (يع 1: 17) ويجب علينا أن نقدرها حق قدرها. وعندما يقول بولس الرسول عن حكمة العالم أنها "جهالة عند الله" (1 كو 3: 19)، وعندما يحذر من الفلسفة في مكان آخر (كو 2: 8) فإنه يشير إلى تلك الحكمة المنتفخة الباطلة التي لم تعترف بحكمة الله المتضمنة في كشفه عن نفسه (1 كو 1: 21) بل أصبحت في كل تصوراتها باطلة وحمقاء (رو 1: 21). ولكن بولس الرسول في مواضع أخرى يرفع من شأن المعرفة والحكمة. وهذا ما نجده في الأسفار المقدسة، لأن الكتاب المقدس يؤكد أن الله وحده هو الحكيم وهو الذي يملك معرفة تامة لذاته ولكل شيء. وأنه بالحكمة أسس العالم وأغدق على كنيسته هذه الحكمة بسخاء، لأن جميع كنوز الحكمة والعلم مذخرة في المسيح، والروح القدس هو روح الحكمة والمعرفة الذي يفحص كل شيء حتى أعماق الله (أم 3: 19، رو 11: 33، 1 كو 2: 10، أف 3: 10، كو 2: 3). فالكتاب المقدس لا يقلل من شأن المعرفة ولا يحتقر الفلسفة، بل على العكس يشدد على أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الحكمة أفضل من الجواهر، وكل الأشياء التي قد يشتهيها البشر لا تقارن بها (أم 13: 11) فهي عطية الله الذي هو ينبوع المعرفة (أم 2: 6، 1 صم 2: 3).

لكن ما يطلبه الكتاب المقدس هو معرفة تُبنى على أساس مخافة الله: "مخافة الرب رأس الحكمة" (أم 1: 7). فإذا ما انقطعت صلة المعرفة بهذا الأساس فقد تبقى بشكل مزيف على اسم المعرفة لكنها تصبح تدريجياً حكمة عالمية هي غباوة في نظر الله، وكل علم أو فلسفة أو معرفة تفترض أنها تستطيع أن تستقل بذاتها عن الله، تصبح نقيض نفسها، وتخيب انتظار كل من عقد آماله عليها.

ومن السهل علينا تفهم هذا. فمن الناحية الأولى، ترى أن العلم والفلسفة لهما دائماً سمة مميزة وهما في متناول قلة من البشر. وهذه الجماعة المختارة التي يمكنها أن تكرس كل حياتها لتحصيل المعرفة، لا تستطيع أن تبلغ سوى قدر يسير من بحر المعرفة الواسع، وتبقى جوانب كثيرة من المعرفة مجهولة عندهم. ولذلك فكل الشبع النفسي الذي يمكن للمعرفة أن تمنحه للإنسان لا يمكن- بسبب طبيعة المعرفة الخاصة والمحدودة - أن تشبع تلك الاحتياجات الدفينة التي تأصلت في الطبيعة البشرية منذ الخليقة، ولذلك نجدها في جميع البشر.

ومن الناحية الثانية، عندما تحدث نهضة في مجال من مجالات الفكر الفلسفي بعد مرحلة من الضعف، تميل إلى المبالغة في توقعاتها. وفي نشوة نهضتها وحماستها تحيا على أمل بأن تحل لغز الوجود عن طريق بحثها الجاد المستمر. ولكن سرعان ما تذهب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تلك الآمال أدراج الرياح، وتعود خيبة الأمل القديمة من جديد. ونهاية المطاف لكل معرفة هو ذلك الاعتراف الحزين اليائس بأن الإنسان يتخبط بين ألغاز محيّرة بل أن حياته ومصيره أسرار غامضة لا يدرك كنهها.

ومن الناحية الثالثة، جدير بنا أن نذكر أن الفلسفة والعلم، وإن كان ممكناً أن يصلا إلى درجة من اليقين أكبر مما سبق وحققناه، فهما لا يرويان غليل قلب الإنسان، فالمعرفة من دون الفضيلة ومن دون أساس أخلاقي تصبح أداة في يد الخطيئة لتخطط وتنفذ شروراً أعظم، وإذ بالرأس الممتلئ معرفة يخدم قلباً فاسداً. وبهذا المعنى يقول الرسول بولس: إن كانت لي عطية النبوة، وأعلم جميع الأسرار وكل علم، ولكن ليست لي محبة فلست شيئاً. (1كو 13: 2).

وينطبق هذا الأمر نفسه على مجال الفن. فالفن أيضاً عطية من الله، وكما أن الرب نفسه ليس هو الحق والقداسة فحسب، بل يتضمن أيضاً المجد والجلال ويبسط جمال اسمه على جميع أعماله، فهو كذلك فن يزود بروحه الفنان بالحكمة والفهم والمعرفة للإبداع في سائر الفنون (خر 31: 3، 35: 31). وهذه المقدرة لها طبيعة روحية تعبر عن أشواق الإنسان العميقة، ومثله العليا ورغبته التي لا تشبع في أن يرى التوافق والتناسق من حوله في كل مكان. كذلك يطرح الفن أمامنا في معجزاته عالماً مثالياً تنعدم فيه جميع المتناقضات، ويصبح كل ما فيه منسجماً ومشبعاً. وهكذا، فالجمال الذي جعله حكماء هذا العالم الساقط في الخطيئة مبهماً مظلماً ينكشف لعين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفنان البسيطة. ولأن الفن يرسم لنا صورة أخرى وأسمى للحقيقة، فإن هذا يشيع في حياتنا راحة وبهجة، مما يرفع نفوسنا من حال الفزع ويملأ قلوبنا بالرجاء والفرح.

ومع أن الفن يمكن أن ينجز الكثير، فإن تمتعنا بجمال الفن يقتصر على مخيلتنا. فلا يمكن للفن أن يسد الفجوة بين ما هو مثالي وما هو واقع فعلاً. ولا يمكن للفن أن يجعل أماني المستقبل واقعاً نعيشه اليوم. إنه يرينا مجد "أرض الموعد" من بعيد، ولكنه لا يدخل بنا إلى الوطن الفضل ولا يجعلنا من رعاياه. الفن عظيم، لكنه لا يشمل كل شيء. إنه، كما قال عنه أحد عظماء الفنانين، ليس أقدس وأنبل الأشياء، وليس هو الديانة الواحدة الوحيدة، ولا خلاص الإنسانية الأوحد. فالفن لا يمنحنا المصالحة في مواجهة الخطية، ولا يطهر أدراننا، بل أنه لا يستطيع حتى مسح دموعنا ونحن نواجه أحزان الحياة.

أما الثقافة والمدنية، والنزعة الإنسانية، وحياة المجتمع، أو غيرها من المسميات، فلا يمكن أن نعتبرها خير الإنسان الأسمى. لا شك أننا لا نجانب الصواب ونحن نتحدث عن نوع من التقدم في مجالات الخدمات الإنسانية والخيرية. فإذ نقارن الأسلوب القديم بالأسلوب الحديث في معاملة الفقراء والمرضى والبؤساء والمعوقين والأرامل واليتامى والمختلين عقلياً والسجناء. لا شك أن هذا يدفعنا للسعادة والامتنان. فها نحن نرى روح العطف والرحمة وهي تبحث عن الضال وتحنو على المظلوم. إلا أن عصرنا الحاضر يقدم لنا جنباً إلى جنب مع هذه الحسنات تشكيلة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

رهيبة من الرذائل: من المادية إلى البغاء، إلى تفشي المسكرات وغيرها من الأشياء البغيضة التي نقف في خجل أمامها ونحن لا نستطيع أن نقرر هل نتقدم إلى الأمام أم نتقهقر إلى الوراء، فبينما نستغرق في نظرة متفائلة لحظة من الوقت نكتشف أنفسنا وقد غصنا في تشاؤم عميق في اللحظة التالية.

ومهما يكن الأمر، فمن المؤكد أن حياة خدمة الإنسانية ومحبة القريب تفقد قوتها وهويتها ما لم تكن متأصلة في شريعة الله. فمحبة القريب، في نهاية المطاف، ليست شيئاً تلقائياً، يصدر طبيعياً من قلب الإنسان. فالمحبة مشاعر، وعمل، وخدمة تتطلب قوة إرادة عظيمة تمكنها من الثبات في مواجهة القوات الهائلة التي تعمل للمصلحة الذاتية والدوافع الأنانية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مثل هذه المحبة للقريب لا تحظى إلا بالقليل من تأييد ذلك القريب نفسه. وبصفة عامة لا نجد أن البشر بالطبيعة يتمتعون بالصفات التي تدفعنا تلقائياً لنحبهم كما نحب ذواتنا دون جهد وصراع ومثابرة. ولا يمكن لمحبة القريب في الواقع أن تدوم إلا متى كانت مؤسسة على شريعة الله من ناحية، ومتى منحنا هذا الإله بالذات من الناحية الأخرى الرغبة في أن نحيا باستقامة وفقاً لوصاياه.

والنتيجة التي نستخلصها هي ما وصل إليه القديس أوغسطينوس في عبارته المشهورة التي مفادها أن القلب البشري قد خُلق لله ولن يجد راحة إلا في قلب الآب. فالكل إذاً يبحثون في الواقع عن الله، كما قال القديس أوغسطينوس، إلا أنهم لا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يبحثون عنه بالطريق الصحيح ولا في المكان الصحيح. إنهم يبحثون عنه في الأرض فيما هو في السماء. ويذهبون في البحث عنه بعيداً فيما هو قريب منهم. يبحثون عنه في المال والممتلكات والشهوة والسطوة والنزوات، غير أنه في الأماكن السامية المقدسة ومع كل منسحق القلب ومتواضع الروح (إش15:57). إنهم يطلبونه "لعلهم يلتمسونه فيجدوه" (أع 27:17). إنهم يطلبونه وفي الوقت نفسه يهربون منه. إنهم لا يسرون بمعرفة طرقه ولكنهم لا يستطيعون أن يستغنوا عنه. يشعرون أنهم منجذبون إليه. وفي الوقت نفسه ينفرون منه.

هنا تكمن، كما رأى باسكال المفكر الفرنسي المسيحي بثاقب فكره، عظمة الإنسان وشقاؤه: فهو يشتاق إلى الحق، إلا أنه زائف بطبيعته، وينشد الراحة، ولكنه يلقي نفسه في قلب الصراعات والانحرافات. يتوق إلى سعادة دائمة وهناءة أبدية، ولكنه يجري وراء لذة وقتية. يبحث عن الله، وإذا به يفقد نفسه وهو يسعى وراء المخلوقات. إنه ولد وترعرع في بيت الأب، ومن ثم نجده يأكل خرنوب الخنازير في أرض غريبة. يهجر ينبوع المياه الحية ويحفر لنفسه آباراً مشققة لا تضبط ماء (إر 13:2) إنه كجائع يحلم بأنه يأكل، ويستيقظ فيجد نفسه جوعان، وكعطشان يحلم أنه يشرب ثم يستيقظ وإذا به ما زال عطشاناً (إش 8:29).

لا يستطيع العلم أن يفسر ما يعانيه الإنسان من التناقض. فالعلم ينصرف إلى عظمة الإنسان لا إلى بؤسه، أو يهتم ببؤسه فقط دون عظمته. فهو يعظمه ويمجده

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بدرجة أكبر من اللازم، أو ينحط به أكثر مما يجب. لا يعرف العلم أن الإنسان خُلق على صورة الله وشبهه، كما لا يعرف شيئاً عن سقوطه الفادح. لكن الكتاب المقدس يتعامل مع جانبي الحقيقة، ويسلط الأضواء على الإنسان والإنسانية، حيث تتبـــدد التناقضات وينقشع الضباب وتنكشف الأمور الخافية. فالإنسان لغز لا حل له إلا في الله وحده.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثاني

معرفة الله

الله هو خير الإنسان الأعظم: هذه شهادة الكتاب المقدس بأكمله. إذ يبدأ الكتاب المقدس بالحديث عن خلق الله للإنسان على صورته كشبهه، ليعرف الإنسان خالقه بكيفية صحيحة، وليحبه من كل قلبه وليحيا معه في سعادة أبدية. وخاتمة الكتاب المقدس وصف لأورشليم الجديدة التي يرى سكانها الله وجهاً لوجه واسمه على جباههم (رؤ 22:4).

وبين هاتين الحقيقتين نجد إعلان الله عن ذاته بكل ما يشتمل عليه من أبعاد. ومضمون هذا الإعلان هو عهد النعمة الواحد العظيم الشامل: "فأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لي شعباً" (إر 7:23). ويبلغ هذا الإعلان نقطته المركزية وذروته في عمانوئيل، الله معنا (إش 7:14، مت 1:23)، فالوعد وتحقيقه يسيران جنباً إلى جنب، وكلمة الله هي البداية، الأمل والبذر ة، تبلغ تحقيقها الكامل عندما تترجَم إلى أحداث على مسرح التاريخ. وكما أوجد الله الأشياء في البدء بكلمة قدرته (عب 1:3)، فإنه سيتوج الزمن إذ يخلق بكلمته السماء الجديدة والأرض الجديدة حيث يسكن تعالى مع البشر.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لهذا يقول الكتاب عن المسيح، الذي فيه صار الكلمة جسداً، إنه مملوء نعمة وحقاً (يو 1:14). فهو الكلمة الذي كان في البدء عند الله والذي كان هو الله، ولذلك فهو حياة الناس ونورهم (يو 1:41). ولأن المسيح يشارك الله الآب حياته، ويعبّر الآب عن فكره عن طريق المسيح، فالكيان الإلهي كله معلن في المسيح. فالمسيح لا يظهر لنا الآب ويكشف اسمه فحسب، بل أنه في ذاته يرينا الآب ويعطينا إياه. فالمسيح هو الله معبَّراً عنه والله مقدَّماً لنا. ولهذا فهو "مملوء نعمة وحقاً" (يو 1:14). وكلمة الوعد "فأكون لكم إلهاً" تتضمن بين طياتها منذ لحظة النطق بها تحقيق ذلك الوعد: "أنا إلهكم". فالله يعطي ذاته لشعبه، ليعطي شعبه أنفسهم له.

يعلن الله في الكتاب المقدس باستمرار، وبكيفية متكررة، شهادته عن نفسه بالقول: "أنا إلهكم". ومنذ الوعد الأول في (تك 3:15)، تتكرر هذه الشهادة الغنية التي تشمل جميع البركات وجوانب الخلاص كلها، سواء كان ذلك في ما يتعلق بحياة رؤساء الآباء أو بتاريخ شعب إسرائيل، أو بكنيسة العهد الجديد. وكصدىً لذلك، فإن الكنيسة على مر العصور تعبّر عن إيمانها بأساليب متنوعة، معترفة بالجميل ومسبّحة بحمده: أنت إلهنا ونحن شعبك وغنم مرعاك (مز 100:3).

وإذ تعلن الكنيسة إيمانها لا تقدم عقيدة علمية، ولا صياغة شكلية تتحد في ترديدها، ولكنها تعبّر عن إقرار واعتراف بحقيقة تحسّ بها بعمق، واقتناع بحقيقة نتجت عن اختبارات الحياة. فالأنبياء والرسل عامة والقديسين الذين نلتقيهم على

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

صفحات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وفيما بعد ذلك في كنيسة المسيح، لم يجلسوا ليقدموا نظريات فلسفية عن الله في صورة أفكار مجردة، بل أقروا بمكانة الله في حياقم وبأهم مدينون له في كل ظروف الحياة. فلم يكن الله بالنسبة إليهم فكرة جامدة يتناولوها بتحليل عقلاني. ولكنه كان في نظرهم قوة شخصية حية، حقيقة يتلامسون معها أكثر جداً من تلامسهم مع العالم المادي الذي يحيط بهم. فهو بالنسبة إليهم الواحد الوحيد السرمدي، الذي يستحق وحده السجود والعبادة. لذا تعاملوا معه وعاشوا في حضرته وسلكوا وكأهم دائماً في محضره، كما قاموا بخدمته في دياره، وتعبدوا له في مقدسه.

إن ما يميز اختبار هؤلاء من أصالة وعمق يظهر في اللغة التي عبروا بها عن مكانة الله في حياقم. فلم يجدوا أنفسهم في حاجة لأن يبذلوا الجهد بحثاً عن المفردات، إذ تدفقت الكلمات على شفاههم وزودهم عالم البشر والطبيعة بصور التعبير المختلفة. وكان الله بالنسبة إليهم هو الملك والسيد، الرب الجبار، القائد والراعي والفادي والمعين والطبيب والأب. وهو مصدر بركتهم وهنائهم وحقهم وبرّهم وحياقم، مصدر رحمتهم وقوقم وبأسهم وسلامهم وراحتهم. إنه شمسهم وترسهم، وهو الذي يَقيهم، كما أنه نورهم ونارهم، وينبوعهم المروي والبئر الذي يستقون منها، صخرقم وترسهم، حصنهم وبرجهم، مكافأقم وسترهم، مدينتهم وهيكلهم. فكل ما يمكن للعالم أن يقدمه من خير إنما هو ظل باهت للخلاص الكامل الذي يقدمه الله لشعبه. ولذلك يخاطب داود الرب قائلاً: "قلت للرب أنت سيدي.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

خيري، لا شيء غيرك" (مز16:2). ويتغنى آساف قائلاً: "من لي في السماء؟ ومعك لا أريد شيئاً في الأرض. قد فني لحمي وقلبي، صخرة قلبي ونصيبي الله إلى الدهر" (مز 26 25:73) حتى السماء في نظر المؤمن، بكل بركاتها ومجدها تضحي، من دون الله، باطلة عقيمة تافهة. وإذ يحيا في شركة مع الله، لا ينشغل بما هو أرضي، لأن محبة الله تسمو على كل خير آخر.

هذا هو اختبار أولاد الله. إنه اختبار أحسوا به لأن الله قدّم ذاته ليسعدوا به في شخص ابن محبته. وبهذا المعنى قال المسيح أن الحياة الأبديـــة، أي الخـــلاص في كماله، يتركز بالنسبة للإنسان في معرفة الإله الحقيقي الواحد، ويسوع المسيح الذي أرسله (يو 3:17).

لقد نطق المسيح بهذه الكلمات في لحظة مباركة. لقد كان يوشك أن يعبر وادي قدرون ليدخل بستان جثسيماني، ويواجه آخر صراعاته هنالك. إلا أنه، قبل أن يصل إلى ذلك المكان، يهيئ نفسه—بوصفه كاهننا الأعلى- لآلامه وموته. ويصلي للآب ليمجده الآب في آلامه، وبعد ذلك ليمجد الابن الآب بأن يوزع جميع تلك البركات التي كان يوشك أن يحققها بطاعته حتى الموت. وإذ يصلي الابن هكذا، فهو لا يرغب في شيء سوى إرادة الآب ومشيئته الصالحة. لقد أعطى الله الابن سلطاناً على كل ذي جسد، ليعطي هو حياة أبدية لكل من أعطاه إياها. وقوام هذه الحياة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الأبدية ليس شيئاً سوى معرفة الإله الواحد الحقيقي، ويسوع المسيح الذي أُرسل ليعلنه (يو 17: 1- 3).

واضح أن المعرفة التي يتكلم عنها هنا لها صفاتها المميزة. فهي تختلف عن أية معرفة أخرى يمكن للمرء أن يحصل عليها– لا من جهة درجة المعرفة. بل من جهة جوهرها.

فهذه المعرفة مختلفة أولاً في مصدرها، إذ أننا مدينون بها تماماً للمسيح. لذا يمكننا أن نقول من زاوية معينة بأننا نحصل على معرفتنا في المجالات الأخرى عن طريق إدراكنا وتقديرنا للأمور، بمجهودنا ودراستنا. أما معرفة هذا الإله الواحد الحقيقي، فينبغي لنا، وكأننا أطفال، أن نسمح للمسيح بأن يعطينا إياها. ولا يمكن أن نجدها بعيداً عنه، لا في معاهد العلم، ولا بين الفلاسفة البارزين. فالمسيح وحده هو الذي عرف الآب. كان في البدء مع الله، في حضنه، ورآه وجهاً لوجه. وهو نفسه الله: بهاء مجده ورسم جوهره، وهو ابن الآب الوحيد المحبوب، الذي كان سروره الكامل فيه. (مت 17:3، يو 14:1، عب 3:1). فليس شيء في كيان الآب خفي عن الابن، ما دام الابن يشترك في الطبيعة نفسها والصفات عينها والمعرفة ذاتها. ولا يوجد من يعرف الآب معرفة كاملة سوى الابن (مت 11: 27).

وقد جاء هذا الابن إلينا، وأعلن لنا الآب. فهو أعلن اسم الآب للبشر. لهذا تجسد، وظهر في الأرض: لنعرف ذاك الذي هو الحق (1 يو 5: 20)، إننا لم نعرف

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الله و لم نسر بمعرفة طرقه (أي 21: 14)، إلا أن المسيح أعطانا أن نعرف الآب. لم يكن المسيح فيلسوفاً أو عالماً، أو فناناً، بل كان عمله هو أن يعلن اسم الآب لنـــا. وهذا فعله بالتمام في حياته كلها. ولقد أعلن الله بأقواله وأفعاله، بحياتــه وموتــه، وبشخصه وبكل ما كان هو إياه وبكل ما فعله. فلم يقل أو يفعل شيئاً سوى ما رأى أن الآب يفعله، كما كان طعامه أن يصنع مشيئة الآب. وكل من رآه فقــد رأى الآب أيضاً (يو 34:4، 8: 26- 28، 50:12، 9:14).

ويمكننا أن نركن إليه تماماً في إعلانه لله، لأنه هو يسوع المسيح المرسل من لدن الآب. ولقد أعطاه الله نفسه اسم "يسوع" "لأنه يخلص شعبه من خطايــاهم" (مت 1: 21). واسمه "يسوع" لأنه مسيح الآب، وقد اختاره الله نفسه وأهله لكل وظائفه (إش 1: 42، مت 3: 16). وهو الواحد المرسل من الله، لأنه لم يأت باسم نفسه كالكثيرين من الأنبياء والكهنة المزيفين. الذين يأتون باسم أنفسهم، ويقيمون أنفسهم، وينسبون الفضل لأنفسهم. إنه ليس كذلك، ولكن لأن الآب أحب العا لم كل هذا الحب، قدم ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية– لأجل هذا هو مرسل من الآب (يو 3: 16).

لذلك فالذين يقبلونه ويؤمنون به، أعطاهم جميعاً الحق والأهلية ليكونــوا أولاد الله (يو 1: 12). فهم مولودون من الله، وشركاء الطبيعة الإلهية، ويعرفون الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في وجه المسيح ابنه. ذلك أنه لا يعرف أحد الابن إلا الآب، كما لا يعرف أحد الآب إلا الابن ومن يريد الابن أن يعلن الآب له (مت 11: 27).

ومن الناحية الثانية تختلف معرفة الله عن سائر أنواع المعرفة من حيث موضوعها. فالمعارف الأخرى كلها يمكن– وبصفة خاصة في عصرنا الحاضر– أن يكون مجالها واسعاً. إلا أنها تدور حول المخلوق وتقتصر على ما هو وقتي، ولا يمكن أن تعرف ما هو أبدي. طبيعي أن قدرة الله الأزلية ولاهوته معلنان في الطبيعة أيضاً. إلا أن معرفة الله التي نستمدها من هذا المصدر معرفة هزيلة غامضة يشوبها الخطأ، بالإضافة إلى أن البشر لا يقدرونها كثيراً. ومعرفة الله عن طريق الطبيعة لم تدفع البشر لأن يمجدوه أو يحمدوه كإله، بل حمقوا في تصوراتهم، وأبدلوا بمجد الله الذي لا يفنى، صوراً مشابهة للمخلوقات. إذاً الخليقة تعلن الله وتخفيه على حد سواء (رو 1: 20- 23).

إلا أنه في صلاة رئيس كهنتنا، تلك التي سبقت الإشارة إليها، يبرز أمامنا شخص ينصرف عن مثل هذه المعرفة، ويتحدث بجرأة عن معرفة الله. أيمكن أن يكون الله موضوع معرفة البشر؟! من يستطيع أن يسبر أغوار ذلك؟ كيف يمكن للإنسان أن يعرف الله الذي لا تحده حدود ولا يدركه أحد، لأننا لا نستطيع أن نقيسه بحدود الزمن أو الأبد، ذاك الذي في حضرته تغطي الملائكة وجوهها بأجنحتها والساكن في نور لا يدنو منه أحد، والذي لم يره إنسان قط ولا يمكن لأحد أن يراه؟ كيف يمكن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للإنسان الذي في أنفه نسمة، والذي لا يحسب شيئاً، أن يعرف مثل هذا الإله (إش 2: 22)؟ كيف يمكن لإنسان معرفته– مهما سمت– معرفة جزئية أن يعرف الله؟ إن معرفة الإنسان إنما هي معرفة عن الأشياء، وليست معرفة للأشياء في ذاتها. فماذا يعرف عن الأشياء في مصدرها وجوهرها وهدفها؟ ألا يلفه المجهول من كل جانب؟ أو لا يقف دائماً على حافة ذلك المجهول؟ فهل يمكن القول إن مثل هذا الإنسان الفقير، الضعيف، المعرض للخطأ، والذي يحيط به الجهل من كل جانب، يستطيع أن يعرف الله السامي القدوس الذي له وحده الحكمة والقادر على كل شيء؟

إن هذه المعرفة تفوق إمكانياتنا، إلا أن المسيح الذي رأى الآب وأعلنه لنا يتحدث عنها. ويمكننا أن نعتمد عليه لأن شهادته حق وتستحق أن نقبلها تماماً. فإن كنت تريد، أيها الإنسان، أن تعرف من هو الله، فلا تسأل الحكماء والكتاب ومجادلي هذا العصر، بل انظر إلى المسيح واصغ لكلمته! ولا تقل في قلبك من يصعد إلى السماء أو من ينزل للأعماق؟ لأن الكلمة قريبة منك، الكلمة التي أعلنها المسيح. (رو10: 6- 8). فهو نفسه الكلمة، إعلان الآب الكامل. وكما الابن فكذلك الآب. بار وقدوس ومملوء نعمة وحقاً. وفي صليب المسيح أصبح كل مضمون العهد القديم واضحاً معلناً: الرب إلهنا حنان ورحيم، طويل الروح وكثير الرحمة. لا يعاملنا كخطايانا ولا يجازينا كآثامنا. لأنه كما ارتفعت السماوات فوق الأرض، كذلك عظمت رحمته نحو خائفيه. كبعد المشرق عن المغرب أبعدَ عنّا معاصينا. كما ترأف الآب على البنين، كذلك يترأف الرب على خائفيه (مز 103: 8– 13) وإذ نرى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مجد المسيح في مرآة كلمته هتف فرحين: نحن نعرفه لأنه هو عرفنا أولاً، نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً (1 يو 4: 19).

هذا المصدر وهذا المضمون يحددان الجوهر الخاص الذي تتميز به معرفة الله.

وفي الآية التي أشرنا إليها من صلاة رئيس كهنتنا، يتحدث الرب يسوع عن معرفة ليست هي مجرد معلومات ولكنها معرفة حقيقية. وهنالك فارق كبير بين هذين النوعين من المعرفة. فإذ نحصل على بعض المعلومات من الكتب عن نبات، أو حيوان، أو شخص، أو بلد من البلاد، أو شعب من الشعوب، فهذا لا يعني معرفة مباشرة شخصية عن هذا الأمر أو ذاك. فمثل هذه المعلومات تتأسس على وصف شخص آخر للموضوع. ومن هذه الزاوية، فالمعلومات أمر عقلاني فحسب. إلا أن المعرفة الحقيقية تتضمن عنصراً من الاهتمام الشخصي والمشاركة، ونشاط العاطفة والإرادة.

ولا شك أن الكلمة المقدسة تقدم وصفاً لمعرفة الله التي أعطاها المسيح. ولذلك فمن الممكن أن نحصل على معلومات عن الله تختلف جوهرياً عن المعرفة الحقيقية التي قصدها المسيح. وعليه، فمن الممكن أن يعرف المرء إرادة الرب، دون استعداد قلبي لتنفيذ هذه الإرادة (لو 12: 47، 48). يمكن للإنسان يقول: "يا رب، يا رب" دون أن يدخل ملكوت السماوات (مت 7: 21). وللشياطين مثل هذا الإيمان الذي لا يدفع إلى المحبة بل إلى الخوف والفزع (يع 2: 19) وهنالك من

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يسمعون الكلمة ولكنهم لا يرغبون في العمل بالكلمة فينالون عقاباً مضاعفاً (يع 1: 22).

وإذ يتحدث المسيح في هذا المجال عن معرفة الله، يتحدث عن معرفة تماثل من حيث نوع المعرفة التي عنده هو. فلم يكن المسيح لاهوتياً محترفاً، كما لم يكن أستاذاً متخصصاً في العلوم اللاهوتية. ولكنه عرف الله عن طريق الرؤية الشخصية والبصيرة التي له. لقد رأى الله في كل مكان: في الطبيعة، وفي كلمته وفي خدمته. وقد أحبه أكثر من كل شيء أو شخص، وأطاعه في جميع الأشياء، حتى في الموت على الصليب. لقد كانت معرفته الحق جزءاً لا يتجزأ من تطبيق الحق عملياً. فالمعرفة والمحبة تسيران جنباً إلى جنب.

ومعرفة المرء لله ليست في معرفة الكثير عنه، بل في أن نراه في شخص المسيح، أن نتقابل معه في طريق الحياة، وفي اختبارنا الشخصي، أن نتعرف بفضائله وبرّه وقداسته ورأفته ونعمته.

ولأجل هذا فإن هذه المعرفة، في تميزها عن أنواع المعارف الأخرى، نسميها معرفة الإيمان. فهي ليست حصيلة دراسة علمية أو تأملات فلسفية، بل هي إيمان بسيط كإيمان الأطفال. وليس هذا الإيمان معرفة يقينية فحسب ولكنه ثقة وطيدة بأن الله لا يعطى الآخرين فقط، بل يعطيني أنا أيضاً غفران الخطايا والبر الأبدي والخلاص، وكل هذا مجاناً وبمجرد النعمة، وعلى أساس استحقاقات المسيح، ولا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

شيء غير ذلك. ولا يدخل ملكوت السماوات سوى من يصبحون كالأطفال الصغار (مت 18: 3). ولا يرى وجه الله سوى الأنقياء القلب (مت 5: 8)، كما لا يدخل الملكوت سوى المولودين من الماء والروح (يو 3: 5). والذين يعرفون اسمه يضعون ثقتهم فيه (مز 9: 10). ونحن نعرف الله بقدر ما نحبه.

متى تفهمنا معرفة الله بهذه الكيفية، لن يدهشنا أن نلاحظ أن عمل هذه المعرفة ومفعولها لا بد أن يفضيا إلى الحياة الأبدية، وليس أقل. والواقع أنه يبدو أن العلاقة بين المعرفة والحياة ضئيلة. ألا يقول الجامعة حقاً: "لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم، والذي يزيد علماً يزيد حزناً و"لعمل كتب كثيرة لا نهاية والدرس الكثير تعب للجسد" (جا 1: 18، 12: 12)؟

والمعرفة قوة. ويمكننا أن نتفهم ذلك ولو لدرجة محدودة. وكل معرفة فيها انتصار للروح على المادة، وإخضاع للأرض لسيادة الإنسان. إلا أن هذه المعرفة يجب أن تكون حياة. ومن يستطيع أن يتفهم ذلك؟ إلا أنه حق في النظام الطبيعي، فإن عمق الحياة وغناها يتزايدان بالمعرفة. فكلما كان الوعي والإلمام بالأمور شاملين، كانت الحياة قوية من جميع النواحي. فالجماد لا يعرف، ولذلك يحيا. وإذ ينمو الإدراك في الحيوانات، فإن حياتها تزداد غنى من حيث المضمون واتساع المجال والأفق. وإن أغنى أنواع الحياة بين البشر هي حياة ذاك الذي يعرف أكثر من الجميع. فما هي في الواقع حياة ذاك الذي يعرف أكثر من الجميع. فما هي في الواقع حياة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مختل العقل، والساذج، والمتخلف؟ إنها حياة فقيرة محدودة بالنسبة إلى حياة المفكر والشاعر. إلا أننا مهما لاحظنا من اختلاف هنا، فهو اختلاف في الدرجة. فهذه المعرفة لا تجري تغييراً في الحياة. ومثل هذه الحياة، سواء أكانت حياة عالم ممتاز أو حياة عامل كادح بسيط، لابد أن تنتهي بالموت، لأنها تعيش على موارد هذا العالم المحدودة.

إلا أن هذه المعرفة التي يتحدث المسيح عنها ليست معرفة المخلوق، ولكنها معرفة الله الحقيقي الواحد. فإن كانت معرفة الأشياء المنظورة تُغني الحياة، فكم يمكن أن تقدم معرفة الله للحياة؟ فالله ليس إله الموت والأموات بل إله الحياة والأحياء. وكل من خلقهم من جديد على صورته وردّهم إلى شركته، وقد رفعهم بذلك فوق مستوى الموت وقابلية الموت. فقد قال المسيح أن من يؤمن به، ولو مات، فسيحيا، وكل من كان حياً وآمن به لا يموت (يو 11: 25، 26) إذاً معرفة الله في المسيح تأتي بالحياة الأبدية معها، بفرحٍ لا ينطق به، وسعادة سماوية. وليست هذه مجرد تأثيرات معرفة الله، لأن معرفة الله نفسها بكيفية مباشرة حياة جديدة أبدية ومباركة.

وتمشياً مع تعليم الكتب المقدسة في هذا المجال، حددت الكنيسة المسيحية صفة تلك المعرفة أو ذلك العلم الذي أطلق عليه منذ زمن بعيد "علم اللاهوت". وعلم اللاهوت هو ذلك العلم الذي يستمد معرفة الله من إعلانه عن ذاته، وهو الذي يدرس هذه المعرفة ويفكر فيها بإرشاد روح الله، ثم يحاول بعد ذلك أن يصفها لتخدم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مجد الله. واللاهوتي الحقيقي هو الذي يتحدث من عند الله، وعن طريق الله، وعن الله، ويفعل هذا لمجد اسم الله دائماً. والفارق بين المتعلم والشخص البسيط هو اختلاف في الدرجة وحسب– فلكليهما رب واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة وإله وآب واحد للجميع الذي هو فوق الكل وفي الكل. . . إلا أنه لكل واحد أعطيت النعمة بحسب قياس عطية المسيح (أف 4: 5- 7).

بمثل هذه الروح ابتدأ كلفن أصول إيمان جنيف بالسؤال: "ما هي غاية الإنسان العظمى؟" وجاءت الإجابة واضحة مدوية: "أن يعرف الله الذي خلقه". وعلى النهج نفسه يبدأ ملخص أصول الإيمان الوستمنستري تعليمه بالسؤال: "ما هي غاية الإنسان الأسمى والرئيسية؟" ويقدم إجابة مختصرة غنية: "أن يمجد الله وأن يتمتع به إلى الأبد".

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثالث

الإعلان العام

إن صح أنه يمكن للإنسان أن يعرف الله، فهذه الحقيقة تفترض أن الله قد اختار من جانبه أن يعرفه الإنسان بطريقة أو بأخرى. فلا يمكننا أن ننسب معرفة الله إلى أنفسنا. أي إلى اكتشافنا الخاص، أو بحثنا وتفكيرنا العميق. فما لم نُعطَ هذه المعرفة عطاءً حراً بغير اضطرار، فلا يمكننا أبداً أن نصل إليها بمجهودنا الذاتي.

والتعرف بالمخلوقات يختلف بعض الشيء عن التعرف بالله. فمع أننا نعتمد كلياً على الله لنعرف المخلوقات، نجد أن الله كلف الإنسان عند الخليقة أن يخضع الأرض كلها ويسود عليها، وأهلّه لهذا العمل ومنحه الرغبة فيه. والإنسان أسمى من الطبيعة، لذا يمكنه أن يقتبس الظواهر الطبيعية ويدرسها ويستطيع أن يبدع فيوجد بعض الأشياء. يمكنه، بعبارة أخرى، أن يرغم الطبيعة على أن تفصح عن نفسها وتكشف أسرارها.

إلا أن هذه المقدرة محدودة من نواح كثيرة. فكلما ازداد العلم تعمقاً في الظواهر واقترب من جوهر الأشياء، اكتشف أن الأسرار تزداد، فيلفه المجهول من كل جانب. والذين اقتنعوا اقتناعاً عميقاً بمحدودية المعرفة البشرية كثيرون، وكأنهم يقولون: "نحن لا نعرف" أو ربما يضيفون أيضاً: "لن نعرف أبداً".

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فإن كانت محدودية المعرفة البشرية قد صارت واضحة في ما يتعلق بدراسة الطبيعة الجامدة، فطبيعي أنها تصبح أكثر وضوحاً في دراسة المخلوقات الحية العاقلة المفكِّرة.

ففي هذا المجال نتلامس مع حقائق لا يمكننا أن ندفعها هنا وهناك كما نشاء، إذ تنتصب أمامنا في موضوعية، بحيث لا يمكننا أن نتعرف بها إلا بقدر ما تتجاوب مع ما وجده في دواخلنا. فالحياة والوعي والشعور والبصيرة والفهم والعقل والرغبة والإرادة لا تخضع للتجزئة ولا لأن نقوم بتجميعها معاً. فطبيعتها ليست ميكانية بل عضوية، ويجب أن نقبلها كما نجدها، وعلينا أن نحترم ما تنطوي عليه من غموض فمحاولة تفتيت الحياة تقتلها.

ينطبق هذا بصفة خاصة على طبيعة الإنسان نفسه. فمع أنه فعلاً كائن طبيعي لا يستطيع أن يهرب من إدراكنا له، فإن كل ما ندركه بشأنه هو مظهره الخارجي. ومن وراء هذا المظهر الخارجي تكمن حياة غامضة لا تعبر عن نفسها خارجياً إلا بتعبيرات ناقصة عاجزة. ويستطيع الإنسان، من الناحية الأخرى، أن يخفي إلى حد ما عن الآخرين جانب طبيعته الداخلي، كما يستطيع أن يتحكم بتعبيرات وجهه حتى لا تنم عضلة واحدة عما يدور في داخله، مثلما يستطيع أن يستخدم اللغة لإخفاء أفكاره، ويتظاهر في تصرفاته بمواقف تختلف تماماً عما يُبطن. حتى لو كنا نتعامل مع شخص يحترم نفسه ويحتقر الخداع والمكر، ففي سبيل التعرف

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

به نعتمد إلى حد كبير على ما يختار هو أن يعلنه لنا عن نفسه. صحيح أنه قد يكشف عن ذاته دون أن يقصد، فهو لا يملك السيادة المطلقة على نفسه، وكثيراً ما يكشف عن نفسه دون أن يدري، إلا أنه على أي حال، لا بد للإنسان في أن يعبر عن أسرار شخصيته بحياته وكلامه وأفعاله، سواء أراد ذلك أو لم يرد. فلا يمكن التعرف بأي شخص إلا متى كشف عن نفسه سواء، عن وعي وقصد أو دون ذلك.

تقودنا مثل هذه الاعتبارات إلى الفهم الصحيح للشروط التي يجب أن توفرها ليعرف الإنسان الله. فالله هو الواحد المستقل المطلق، الذي له وحده السيادة، وهو لا يعتمد علينا في شيء. أما نحن، سواء من الناحية الطبيعية أو العقلية أو الأخلاقية، فإننا نعتمد عليه اعتماداً كاملاً. من ثم لا سلطان لنا عليه ولا يمكننا أن نتحكم به إطلاقاً. وليست لنا وسيلة نجعله بها موضوع دراستنا وتأملنا. فما لم يدعنا نجده، فإننا لا نستطيع حتى أن نبحث عنه. وما لم يعطنا نفسه، لا يمكننا أن نقبله.

بالإضافة إلى ذلك فالإنسان لا يرى الله، فهو يسكن في نور لا يدنى منه. ولذلك لم يره أحد من الناس قط ولا يقدر أحد أن يراه. ولو حجب أو أخفى نفسه عنا، لما كنا نقدر أن نأتي به إلى داخل نطاق إدراكنا الطبيعي أو الروحي. وطبيعي أنه دون أي إدراك تصبح المعرفة مستحيلة. وأخيراً، لا نضيف المزيد، فإن الله هو القادر على كل شيء.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فمع أننا نحن البشر نكشف دائماً عن ذواتنا، بدرجة كبيرة أو صغيرة، سواء عمداً أو دون قصد، فإن الله يعلن ذاته بقدر معين، كما يريد هو، وذلــك بــدافع إرادته هو، وليس لأي سبب آخر. فلا يمكن أن نتحدث عن إعلان غير مقصــود يتم– إن جاز التعبير– خارج مجال وعيه وحريته. فالله يسيطر علي ذاته تماماً وهو لا يكشف عن ذاته إلا وفق مسرة مشيئته. فمعرفة الله لا يمكن أن تتحقــق إلا علــى أساس الإعلان الذي يتم من جانب الله. ولا يتيسر للإنسان أن يعرف الله إلا مــتى شاء الله بحرية كاملة أن يعلن نفسه، وذلك بالقدر الذي يختاره هو أيضاً.

****

يُعَبَّر عادة عن كشف الله عن ذاته بالاصطلاح اللاهوتي "الإعلان"، فيمــا يستخدم الكتاب المقدس أفعالاً متعددة للتعبير عن ذلك مثل الظهور، الكلام، الأمر، العمل، التعريف، وما شابه. . . . هذا يدلنا على أن الإعلان لا يتم بأسلوب واحد، بل بأشكال متعددة. فكل أعمال الله في الواقع، سواء الكلام أو الأفعال، إنما هــي أجزاء وعناصر من ذلك الإعلان الواحد العظيم والشامل والمستمر. فإبداع الخليقة، والعناية بها، وضبط كل الأشياء، ودعوة شعب الله القديم، وقيادته، وإرسال المسيح، وسكب الروح القدس، وتدوين كلمة الله، وتعهد الكنيسة وبنيانها، وما شابه ذلك، كلها طرق وأشكال يصل بها إعلان الله إلينا. فكل من هذه تخبرنا بشيء عــن الله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وبهذا المعنى، فكل ما هو كائن، وكل ما يحدث، يمكن– بل يجب– أن يقودنا إلى معرفة ذاك الذي معرفته حياة أبدية.

وهذا الإعلان، سواء أكان عاماً أو خاصاً، له المميزات الآتية:

أولاً: يصدر هذا الإعلان دائماً من الله ذاته بإرادته الحرة. فهو تعالى له السيادة المطلقة دائماً، ويتصرف بحرية كاملة عن قصد وإرادة. ومن المعروف أن هنالك من يرفضون الاعتراف بإله شخصي يعي ذاته ومع ذلك يتحدثون عن إعلان إلهي. إلا أن التفكير يضفي على الكلمة معنى يتعارض مع مفهومها المعتاد. فمن وجهة نظر الذين يعتبرون الله قوة قادرة على كل شيء غير أنها بلا شخصية ولا وعي، فربما أمكن القول بأن هذه القوة تنم عن نفسها بكيفية لا إرادية، إلا أن هذا لا يمكن الحديث عنه بأنه إعلان حقيقي، لأن الإعلان يفترض حرية الله المطلقة ووعيه الكامل. فكل إعلان جدير أن نسميه إعلاناً إنما ينبع من الاعتقاد أن الله موجود كشخص، وانه يعي بذاته، وأنه يستطيع أن يعرف الخلائق بنفسه. ومعرفتنا نحن البشر لله تنبع من معرفة الله لذاته وتتأسس عليها. فلو لم يكن الله يعرف ذاته ويعيها لما أمكن الإنسان أن يعرف الله. فأي من ينكر هذا، لا بد أن يصل إلى نتيجة لا يقبلها أي عقل: إما أن معرفة الله مستحيلة تماماً، وإما أن الله لا يبلغ وعيه لذاته سوى في الإنسان، وهذا يضع الإنسان مكان الله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولكن تعليم الكتاب المقدس يختلف تماماً عن ذلك. فالله يسكن في النـــور، وإن كنا لا نستطيع أن ندنو منه، فهو يعرف ذاته تماماً ويمكنه بالتالي أن يعلن ذاتـــه لنا. فلا أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن الآب له (مت 11: 27).

ثانياً: كل إعلان يصدر عن الله هو إعلان عن ذات الله. فالله هو أســـاس الإعلان كما أنه هو مضمونه. وينطبق هذا على الإعلان الأسمى الذي جاء إلينا في المسيح. فيسوع نفسه يقول أنه أظهر اسم الآب للناس (يو 17: 6) والابن الوحيد الذي هو في حضن الآب أظهر الله لنا (يو 1: 18). وينطبق الأمر نفسه على سائر الإعلانات الأخرى التي يقدمها الله عن ذاته. فكل أعمال الله في الطبيعة والنعمة، في الخليقة والتجديد، في العالم وفي التاريخ، تعلمنا شيئاً عن ذات الله الذي لا يمكننا أن ندركه تماماً والذي نتعبد له. ولا تعمل هذه كلها بنمط واحد، ولا تبلغ المدى عينه، كما أن بينها اختلافات شاسعة. فهذا يخبرنا عن صلاح الله، وذلك يحدثنا عن رحمته، ويشع من الواحد نور عظمة قدرته، ومن الآخر حكمته الإلهية. إلا أنها جميعاً– كل منها إلى مداه الخاص– تعلن لنا أعمال الله العظيمة وتعرفنا بفضائله وكمالاته في ذاته وبما يتميز به عن غيره، بفكره وكلمته، بمشيئته ومسرته.

ويجب طبعاً ألا ننسى في هذا المجال أن إعلان الله، بصـــرف النظـــر عـــن مضمونه الغني، يجب ألا نعتبره مطابقاً لمعرفة الله لذاته. فمعرفة الله وإدراكه لذاتـــه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

معرفة مطلقة لا نهائية، تاماً مثل كيانه، ولها طبيعته بعينها. ولذلك فهي لا تخضع لإدراك أي مخلوق. والإعلان الذي تدركه الخليقة عن الله، سواء من الناحية الموضوعية في أعمال يده، أو من الناحية الذاتية في وعي خلائقه العاقلة، لا يشكل إلا جزءاً صغيراً من معرفة الله اللانهائية لذاته. والأمر لا يتعلق بنا نحن البشر الذين على الأرض وحسب، بل أن القديسين والملائكة في السماء أيضاً، وحتى الابن نفسه باعتبار طبيعته البشرية، كل هؤلاء تختلف معرفتهم لله من حيث المبدأ والجوهر عن معرفة الله لذاته. إلا أن المعرفة التي يقدمها الله في إعلانه عن ذاته، والتي يمكن أن تحصل عليها الخلائق العاقلة– وإن كانت محدودة وقاصرة ستبقى للأبد كذلك– هي معرفة حقيقية سليمة. فالله يعلن ذاته في أعماله لنعرفه كما هو بالحقيقة. فمن إعلانه عن ذاته نعرفه. ومن ثم فلا راحة للإنسان ما لم يرتفع فوق المخلوق إلى الله ذاته. وفي دراستنا للإعلان الإلهي، يجب أن يكون اهتمامنا منحصراً بأن نعرف الله. فليس هدف الدراسة أن نتعلم بعض الكلمات ونزداد علماً، بل الهدف الأساسي هو أن تقودنا الدراسة من المخلوقات إلى الخالق وأن تأتي بنا إلى الراحة في قلب الآب.

ثالثاً: إن الإعلان الذي ينبع من الله، والذي مضمونه هو الله، يكون الله أيضاً هدفه. فهذا الإعلان هو منه، وعن طريقه، ويقود إليه أيضاً. فهو الذي خلق كل الأشياء لنفسه (رو 11: 36، أع 16: 4). ومع أن معرفة الله التي نبلغها عن طريق إعلانه ذاته لنا تختلف جوهرياً عن معرفة الله لذاته، فهي مع ذلك معرفة غنية واسعة وعميقة بحيث لا يمكن أن يعيها كلياً إدراك أي مخلوق عاقل. ومع أن الملائكة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يفوقون الإنسان في الإدراك، وهم ينظرون دائماً وجه الآب في السماء (مت 18: 10) فهم رغم ذلك، يشتهون أن يطلعوا على الأشياء التي يقدمها لنا من ينـــادون بالإنجيل (1 بط 1: 12). وكلما تفكر الناس بعمق متزايد في إعلان الله، وجدوا أنفسهم يهتفون مع بولس الرسول: "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه! مـــا أبعــد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء" (رو 11: 33). فالإعلان إذاً لا يبلغ هدفه النهائي في الإنسان، إذ يجاوزه إلى حد ما ويسمو عنه.

ولا شك أن الإنسان يحتل مكاناً هاماً في الإعلان. فالإعلان موجه إلى البشر حتى يطلبوا الرب لعلهم يتلمسونه فيجدوه (أع 17: 27) ويجب أن ينادى بالإنجيل لكل الخليقة، متى آمنوا تكون لهم حياة أبدية (مر 16: 15، 16، يــو 3: 16، 36). إلا أن هذا لا يمكن أن يكون الهدف النهائي والأسمى للإعلان. فلا يمكن أن يجد الله راحته في الإنسان. إذ أن الإنسان هو الذي يجب أن يعرف الله ويخدمه، حتى أنه، مع كل الخلائق وعلى رأسها، يقدم لله المجد اللائق به من أجل كل أعماله. ففي إعلان الله ذاته، سواء من خلال الإنسان أو بعيداً عنه، يعد تعالى لذاته مدحاً، ممجداً اسمه، ناشراً أمام عينيه في عالم خلائقه فضائله وكمالاته. ولأن الإعلان من الله وعن طريقه، فإن هدفه وغرضه هو مجد الله.

وكل هذا الإعلان، الذي هو عن الله وعن طريقه، يتمركز ويبلغ ذروته في شخص المسيح. فليست قبة السماء الزرقاء المتلألئة، ولا الطبيعة بقدرتها، ولا أمير أو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عبقري أرضي، ولا فيلسوف أو فنان، ولكنما ابن الإنسان هو قمة إعلان الله. فالمسيح هو الكلمة الذي صار جسداً، الذي كان في البدء عند الله والذي كان هو الله، الابن الوحيد للآب، صورة الله، بهاء مجده، والصورة المعبرة عن شخصه، ومن رآه فقد رأى الآب (يو 14: 9). في هذا الإيمان يرسخ المسيحي. فقد تعلم أن يعرف الله في شخص يسوع المسيح الذي أرسله الله. فالله نفسه الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح (2 كو 4: 6).

****

من منطلق هذا الموقع المتميز السامي، ينظر المسيحي إلى الأمام وإلى الخلف وفي كل اتجاه. وإن كان وهو يفعل ذلك، في نور معرفة الله التي يدين المسيح بها، يسمح لعينيه بأن تتوقفا عند الطبيعة والتاريخ، والسماء والأرض، فإنه يكتشف في كل مكان آثار نفس الإله الذي تعلم أن يعرفه وأن يتعبد له في المسيح باعتباره أباه هو شخصياً. إن شمس البر يفتح له مشهداً يمتد إلى أقصى الأرض وبنور شمس البر يتطلع إلى الوراء في ليل الماضي السحيق وبالنور نفسه ينفذ إلى مستقبل كل الأشياء حيث الأفق أمامه ومن خلفه واضح، ولو حجبت الغيوم الرؤية في السماء أحياناً.

والمسيحي الذي يرى كل شيء في نور كلمة الله لا يمكن أن يكون أفقه ضيقاً، فهو كريم القلب سخي العقل، ينظر إلى كل الأرض ويعتبرها ملكاً له، لأنه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للمسيح والمسيح لله (1 كو 3: 21 – 23). فلا يمكنه أن يتخلى عن إيمانه بأن إعلان الله في المسيح، الذي هو مدين له بحياته وخلاصه، له صفة خاصة. فهذا الإيمان لا يبعده عن العالم بل بالحري يضعه في مركز يتابع منه إعلان الله في الطبيعة وفي التاريخ، ويتيح له الوسيلة التي بها يتعرف على ما هو صحيح وصالح وجميل ويميز ذلك كله من مزيج الزيف والشر الذي يصنعه البشر.

وبذلك فالمسيحي يميز بين إعلان الله "العام" و "الخاص". ففي الإعلان العام يستخدم الله مجرى الظواهر الطبيعية العادية، وسير الحوادث العادي. أما في الإعلان الخاص فإنه كثيراً ما يستخدم الوسائل والظهورات والنبوات والمعجزات غير المألوفة، ليتعرف به البشر. ومضمون النوع الأول هو على وجه خاص صفات القوة والحكمة والصلاح. أما مضمون النوع الثاني فهو بصفة خاصة قداسة الله وبره وعطفه ونعمته. الأول موجه إلى جميع البشر وعن طريق النعمة العامة يعمل على كبح جماح الخطية، والثاني يأتي إلى كل من يعيشون في دائرة الإنجيل وقد نالوا بمحض النعمة بركاته المجيدة من غفران الخطايا وتجديد الحياة وغيرهما.

ومهما كان من الضروري أن نميز بين الإعلانيين، فهما يظلان متصلين اتصالاً وثيقاً. فالله في صلاحه وإحسانه المطلقين أساس كل منهما. والإعلان العام هو بفضل الكلمة الذي كان في البدء عند الله، والذي صنع كل الأشياء، والذي يسطع كنور في قلب الظلام، وينير كل إنسان يأتي إلى العالم (يو 1: 1 – 9). كما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن الإعلان الخاص هو بفضل الكلمة عينه، الكلمة الذي صار جسداً في المسيح وهو مملوء نعمة وحقاً (يو 1: 14). فالنعمة مضمون الإعلانيين، وهي عامة في النوع الأول وخاصة في الثاني، وإنما بكيفية لا غنى فيها للواحد عن الآخر.

ذلك أن النعمة العامة تجعل النعمة الخاصة ممكنة، فتمهد الطريق لها، ثم تدعمها بعد ذلك. والنعمة الخاصة بدورها ترتفع بالنعمة العامة إلى مستواها الخاص وتوجهها لخدمتها. وأخيراً، يهدف الإعلانان إلى حفظ الجنس البشري، فالإعلان العام يسانده، أما الإعلان الخاص فيفتديه. وبذلك يعمل كلاهما على تمجيد كمالات الله.

إن مضمون كلا الإعلانيين العام والخاص (ليس الإعلان الخاص وحده، بل الإعلان العام أيضاً) موجود في الكتاب المقدس. ومع أن الإعلان العام مستمد من الطبيعة، فهو متضمن في الكتاب المقدس، لأنه من دون الكتاب، ما كان يتسنى لنا نحن البشر، بسبب ظلمة إدراكنا الروحي، أن ندرك هذا الإعلان الإلهي في الطبيعة. ففي رحلتنا في هذا العالم ينير الكتاب المقدس سبيلنا ويضع بين أيدينا الفهم الصحيح للطبيعة والتاريخ، فنرى الله حيث لم يكن في وسعنا رؤيته. وإذ ينير الكتاب أذهاننا نرى عظمة الله التي تتحدث بها أعمال يديه.

فالخليقة نفسها، كما يعّلم الكتاب، تظهر إعلان الله في الطبيعة. لأن الخليقة ذاتها عمل إعلاني، فهي بداية كل إعلان لاحق ومبدأه الأول. فلو كان الكون قائماً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بذاته من البداية، أو كان من الأزل جنباً إلى جنب مع الله، لما كانت الخليقة إعلاناً له. وفضلاً عن ذلك، لوقفت الخليقة، دائماً، عائقاً في سبيل إعلان الله عن ذاته. إلا أن من تمسك بالكتاب المقدس وبحقيقة أن العالم مخلوق، يقر بذلك أن الله يعلن ذاته في هذا الكون كله. وكل عمل يشهد لصانعه. وتتناسب هذه الشهادة مع المدى الذي فيه يمكن أن يوصف ذلك العمل بأنه نتاج صانعه.

ولأن العالم من صنع الله فعلاً، ويدين بطبيعته وكيانه لصانعه في البدء وفيما بعد ذلك، لذا يظهر كل مخلوق بعضاً من فضائل الله وكمالاته. ولذلك، فبمجرد أن ننكر إعلان الله في الطبيعة، أو نقصر ذلك الإعلان على قلب الإنسان ومشاعره مثلاً، يبرز خطر إنكار خلق الله للعالم، أو الاعتقاد أن القوة التي تتحكم بالطبيعة هي غير القوة التي تتحكم بالقلب البشري. فيدخل الشرك بالله إلى الفكر البشري، سواء بكيفية صريحة أو غير معلنة. وإذ يعلم الكتاب المقدس عن الخليقة، فإنه بذلك يتمسك بإعلان الله، كما يتمسك في الوقت نفسه بوحدة الله، ووحدة العالم.

بالإضافة إلى ذلك، يعلم الكتاب المقدس أن الله لم يوجد العالم فقط، ولكنه هو نفسه يحفظ العالم ويسويه لحظة بلحظة وبصفة مستمرة. فهو ليس مرتفعاً فوق العالم وحسب، بل يحل أيضاً في كل خليقته بقوته الفائقة الموجودة في كل مكان. فهو عن كل واحد منا ليس بعيداً لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد (أع 17: 27،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

28). إذاً إعلان الله الذي يأتينا عن طريق الخليقة لا يذكرنا فقط بعمل أنجزه الله منذ زمن بعيد، بل يشهد أيضاً بما يريده الله ويفعله في عصرنا الحاضر.

وعندما نرفع عيوننا إلى العلاء، لا نرى من خلق هذه الأشياء والذي يُخرج بعدد جندها فحسب، بل نلاحظ أنه يدعوها كلها بأسماء. ولكثرة القوة وكونه شديد القدرة لا يفقد أحد (إش 40: 26). فالسماوات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه (مز 19: 1) وهو اللابس النور كثوب الباسط السماوات كشقة، المسقف علاليه بالمياه الجاعل السحاب مركبته الماضي على أجنحة الريح (مز 104: 2، 3) والجبال والوديان مؤسسة في الموضع الذي حدده لها، وهو يسقيها من علاليه (مز 104: 8، 13). من ثمر أعمالك تشبع الأرض، المنبت عشباً للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان لإخراج خبز من الأرض، وخمر تفرح قلب الإنسان (مز 104: 13- 15)، المثبت الجبال بقوته المتنطق بالقدرة المهدئ عجيج البحار (مز 65: 6، 7). وهو يطعم طيور السماء ويكسو عشب الحقل مجداً (مت 6: 26 – 30) وهو يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين (مت 5: 45) وينقص الإنسان قليلاً عن الملائكة، بمجد وبهاء يكلله ويسلطه على أعمال يديه (مز 8: 5، 6)!

وفضلاً عن ذلك، فإن الله ينفّذ مشورته ويثبّت عمله في التاريخ كما في الطبيعة، وقد صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

(أع 17: 26). ونراه يهلك الجنس البشري القديم في الطوفان، إلا أنه في الوقت نفسه يبقي عليه عن طريق أسرة نوح (تك 6: 6– 9). وعند برج بابل يبلبل ألسنة الناس ويبددهم على كل وجه الأرض (تك 12: 7، 8) "وحين قسم العلي للأمم، حين فرق بني آدم نصب تخوماً لشعوب حسب عدد بني إسرائيل" (تث 32: 8) "وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم" (أع 17: 26). ومع أنه اختار شعب إسرائيل القديم ليحملوا إعلانه الخاص، وسمح للأمم الوثنية أن تسلك في طرقها (أع 14: 16)، فهو لم يهمل هؤلاء الأمم ولم يتركهم لمصيرهم الخاص بل على نقيض ذلك، لم يترك نفسه بلا شاهد وهو يفعل خيراً، ويعطيهم من السماء أمطاراً، وأزمنة مثمرة، ويملأ قلوبهم طعاماً وسروراً (أع 14: 17) إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم (رو 1: 19)، لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه (أع 17: 27).

بهذا الإعلان العام حفظ الله الشعوب وقادهم إلى تدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح، ما في السماوات وما على الأرض (أف 1: 10). وهو يجمع كنيسته من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة (رو 11: 25 وأف 2: 14 والآيات التالية ،رؤ 7: 9) هو يعد لنهاية العالم بحيث تسير شعوب المخلصين نحو مدينة الله وبنورها كل ملوك الأرض وشعوبها يجيئون بمجدهم وكرامتهم إليها (رؤ 21: 24– 26).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وفي علم اللاهوت حاول الناس أن ينظموا كل شهادات الطبيعة والتاريخ عن وجود الله وكيانه وأن يصنفوها في مجموعات. وهكذا نتحدث أحياناً عن ستة براهين لوجود لله. فنرى أولاً أن العالم- رغم قوته وشموله- يشهد عن نفسه بأنه محصور في حدود الزمان والمكان، فالعالم يخضع للزمن وهو عارض وطبيعته تدل على الاعتماد على غيره، ولذلك فهو يتطلب كائناً أبدياً أساسياً مستقلاً هو العلة النهائية لكل الأشياء. هذا هو البرهان الكوني. ونرى ثانياً أن العالم في قوانينه وأنظمته، في وحدته وتوافقه، وفي تنظيمات كل خليقته، يكشف غرضاً (أو غاية) يكون من السخرية شرحه على أساسا الصدفة، ولذلك فهو يشير إلى كائن كلي الحكمة والقدرة وبعقله غير المحدود قد أسس هذه الغاية وبقوته الفائقة والموجودة في كل مكان يسعى لتحقيقها. هذه هي الحجة المبنية على الغاية. ونرى ثالثاً أنه في إدراك جميع البشر، هناك إحساس بكائن سام لا يمكن تصور ما هو أسمى منه، ويعتقد الجميع أنه كائن بذاته. فإن لم يكن مثل هذا الكائن موجوداً، فإن الفكرة الأسمى والأكمل، التي لا يمكن تجنبها، تصبح وهماً، وبذلك يفقد الإنسان ثقته في صحة وعيه. هذا هو البرهان الذاتي.

والبرهان الرابع مبني على البرهان الثالث. فالإنسان ليس مجرد كائن عقلاني، بل هو كائن أخلاقي أيضاً. فهو يشعر في ضميره أنه ملتزم لقانون أعلى منه يتطلب منه طاعة غير مشروطة، ومثل هذا القانون يفترض وجود مشرع بارٌ في إمكانه أن يحفظ ويهلك. هذا هو البرهان الأخلاقي.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وتضاف عادة إلى هذه الحجج الأربع حجتان أخريان تستنبطان من التشابه أو التوافق بين الشعوب وتاريخ البشرية. فمن الظواهر التي تسترعي الالتفات أنه لا توجد شعوب أو أمم بلا دين. وقد اعترض على هذه الحقيقة قلّة من العلماء، إلا أن البحث التاريخي قد أثبت خطأهم شيئاً فشيئاً. فلا توجد قبائل أو شعوب ملحدة. وهذه الظاهرة على جانب كبير من الأهمية لأن الإحساس الديني المطلق في جميع أنحاء العالم يدفعنا لأن نختار موقفاً من اثنين: فإما أن يكون البشر بصفة عامة يعانون خرافة حمقاء، أو أن معرفة الله وخدمته اللتين نجدهما بين جميع الشعوب في صور مشوشة، إنما تتأسسان على وجود الله.

وعندما ننظر إلى تاريخ الجنس البشري، في ضوء الكتاب المقدس، نجد أنه يكشف عن خطة أو أسلوب يشير إلى أن كل الأشياء يحكمها كائن أسمى. ومع أن هذه الفكرة تواجه الكثير من الاعتراضات والصعوبات في حياة الأفراد والشعوب، فممّا يسترعي الالتفات أن أي من يدرس التاريخ دراسة جادة يفترض في دراسته أن التاريخ ينطوي بوضوح على فكرة أو خطة يعمل على اكتشافها وتقديمها. فالتاريخ وفلسفة التاريخ يؤسسان على الإيمان بالعناية الإلهية.

وكل ما يسمونه "براهين" أو "إثباتات" لوجود الله لا تكفي لترغم إنساناً على الإيمان. بل أن العلم والفلسفة لا يملكان سوى أدلة قليلة تدفع الإنسان لأن يذعن لهما، فقد يتحقق ذلك في العلوم المنهجية، مثل الرياضيات والمنطق. إلا أننا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بمجرد أن نتعامل مع الظواهر الطبيعية على حقيقتها، وبصفة خاصة في تعاملنا مع التاريخ، فإن كل مجادلاتنا وكل نتائجنا تخضع كقاعدة عامة لجميع أنواع الريبة والاعتراضات. وعندما يتجه المرء إلى مجالات الدين والأخلاقيات، والقانون والفنون، فإن جزءاً أكبر يتوقف على اتجاه الباحث ومدى قابليته للاقتناع. فيمكن أن الجاهل- رغم كل الأدلة- يستمر في أن يقول: إن الله غير موجود، والوثنيون، رغم معرفتهم بالله، لم يمجدوه أو يشكروه (رو 1: 21). فبراهين وجود الله المشار إليها هنا لا توجه إلى الإنسان كمجرد مخلوق يحيا على أساس المنطق والأدلة فحسب، ولكن باعتباره كائناً أخلاقياً عاقلاً. فهذه الأدلة لا تتجه إلى عقله بما له من مقدرة تحليلية استدلالية فحسب، وإنما إلى قلبه ومشاعره، إلى قلبه وضميره. من هذه الزاوية تكون لهذه الأدلة قيمتها لتقوية الإيمان وإيجاد الرابطة بين الإعلان الإلهي خارج الإنسان وداخله.

****

ثم أن الإعلان الإلهي في الطبيعة وفي التاريخ، لا يؤثر في الإنسان على أي حال ما لم يكن في داخل الإنسان ما يتجاوب مع هذا الإعلان. فجمال الطبيعة والفن لا يمكنهما أن يبهجا الإنسان ما لم تكن له مقدرة تذوق الجمال. ولا يتجاوب الإنسان مع القانون الأخلاقي ما لم يعترف المرء بصوت الضمير في داخله. ولا يمكن للمرء أن يدرك الأفكار التي استودعها الله في العالم ما لم يكن هو نفسه كائناً مفكراً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وعلى النقيض، فإن الإنسان لا يدك إعلان الله ذاته في كل أعمال يديه ما لم يغرس الله في نفس الإنسان إحساساً بوجوده لا يمحى. وعلى أي حال فالحقيقة التي لا تقبل الجدل هي أن الله أضاف إلى إعلانه الخارجي لذاته في الطبيعة إعلاناً داخلياً للإنسان. فالبحوث التاريخية والفلسفية في الديانات تكشف مراراً وتكراراً أنه لا يمكن تفسيرها إلا على أساس مثل هذا الإحساس المغروس في الإنسان. وهكذا يعود البـــاحثون في نهاية دراساتهم إلى المبدأ الذي رفضوه في البداية، وهو أن الإنسان في أعماقه مخلوق ديني.

والكتاب المقدس لا يدع مجالاً للشك في ذلك. فبعدما صنع الله كل الأشياء خلق الإنسان، خلقه مباشرة على صورته كشبهه (تك 1: 26) فالإنسان ذرية الله (أع 17: 28). ومع أنه، كالابن الضال، هرب من بيت أبيه، فهو، حتى في قمـــة شروره، يشتاق إلى ذكريات أصله وهدف حياته، وما زال يحتفظ، وهو في أعماق سقوطه، ببقايا صورة الله التي خُلِق عليها. فالله يعلن نفسه خارج الإنسان، ويعلـــن نفسه داخل الإنسان، وهو لا يترك نفسه بلا شاهد في قلب الإنسان وضميره.

ويجب ألا نعتبر هذا الإعلان الإلهي إعلاناً ثانياً جديداً يحل محل الإعـــلان الأول. فهو ليس مصدراً مستقلاً منفصلاً عن الآخر. ولكنه مقدرة وإمكانية ودافع لاكتشاف الله في أعماله ولتفهم إعلانه. إنه وعي ما هو إلهي فينا يساعدنا لأن نرى ما هو الإلهي خارجنا، تماماً كما تمكننا العين من أن نكتشف النور والألوان، وكما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تؤهلنا الأذن لإدراك الأصوات، إنه، كما سماه كلفن، الإحساس بالإلهيات، أو كما وصفه بولس الرسول هو المقدرة على رؤية أمور الله غير المنظورة، أي قدرته السرمدية ولاهوته، في الأشياء المنظورة في الخليقة.

وعندما نحاول أن نحلل هذا الإحساس المتزايد نجد أنه يتكون من عنصرين. فهو يتميز أولاً بالشعور بالاعتماد المطلق. فمن وراء العقل والإرادة، والفكر والعمل، نجد في أنفسنا إدراكنا لذواتنا من ناحية ولكياننا الذاتي من ناحية أخرى، وكل منهما يعتمد على الآخر ويبدو متوافقاً معه. فقبل أن نفكر وقبل أن نعقد العزم، لنا وجودنا ولنا كياننا، لأننا موجودون بصورة قاطعة، ويرتبط وجودنا هذا ارتباطاً لا ينفصم بالإحساس بالوجود وإحساسنا بأننا موجودون على الحال الذي نحن عليه. وجوهر إدراكنا لوجودنا الذاتي ووعينا الذاتي إنما هو الإحساس بالاعتماد. ففي عمق أعماق ذواتنا ندرك مباشرة– دون حاجة للتفكير وقبل كل تفكير– أننا خلائق محدودة تعتمد على غيرها. فنحن نعتمد على كل ما هو من حولنا، على كل العالم الروحي والمادي، والإنسان "يعتمد" على الكون، ثم أنه مع غيره من الخلائق يعتمد، وفي هذه الحالة اعتماداً مطلقاً، على الله الواحد الأبدي الكائن الحقيقي.

إلا أن لهذا الإحساس بالله عنصراً آخر. فلو توقف الأمر عند الإحساس المطلق بالاعتماد على الآخرين، وتركنا جانباً تحديد ذلك الكائن الذي أوجدت قوته هذا الإحساس، لكان ذلك يدفع المرء إلى ثورة واهنة أو إلى استسلام سلبي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كالرواقيين، إلا أن هذا الإحساس بالله يتضمن في ذاته شيئاً عن طبيعة ذلك الكائن الذي يحس الإنسان بالاعتماد عليه. إنه الإحساس بقوة مطلقة أعظم منه. ولكنها ليست قوة عمياء لا تهتم ولا تبالي ولا تحس كما يرى القائلون بالجبرية (الضرورة الحتمية بموجب القضاء والقدر). فعلى نقيض ذلك، إنه الإحساس بقوة أسمى ولكنها في الوقت نفسه كاملة في برها وحكمتها وصلاحها. إنه الإحساس "بالقوة السرمدية" ولكنه أيضاً باللاهوت، أي بكمال الله المطلق. وبذلك فإن الإحساس بالاعتماد لا يقود إلى اليأس والفشل، ولكنه يدفع الإنسان إلى التدين، إلى خدمة الله وإكرامه. وبمعنى آخر، فإن الاعتماد الذي يشعر به الإنسان إزاء الكائن الإلهي اعتماد من نوع خاص جداً. فهو يشمل في ذاته عنصر الحرية ويتجه نحو التصرف. إنه ليس اعتماد العبيد بل الأبناء، حتى وإن كان الابن ضالاً. فالإحساس بالله هو، كما قال كلفن: "هو في الوقت عينه بذرة الدين".

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الرابع

قيمة الإعلان العام

عندما يحاول المرء تحديد قيمة الإعلان العام، يتعرض لمخاطر المغالاة في تقديره أو الإقلال من شأنه. فعندما يستحوذ غِنى النعمة التي أعطاها الله لنا في إعلانه الخاص على كل اهتمامنا، نصبح أحياناً مأخوذين بالنعمة لدرجة يفقد فيها الإعلان العام معناه وقيمته تماماً بالنسبة إلينا. ومن الناحية الأخرى، فإننا عندما نتأمل الصلاح والحق والجمال التي يمكن أن نجدها عن طريق إعلان الله العام في الطبيعة أو في عالم البشر، فإن تلك النعمة الخاصة المعلنة لنا في شخص المسيح وعمله يمكن أن تفقد مجدها وجاذبيتها.

وخطر الشرود بعيداً، سواء لليمين أو لليسار، قائم دائماً في الكنيسة المسيحية. ولذلك فقد قوبل الإعلانان للخاص والعام، كل بدوره، بالتجاهل أو بالإنكار. فكل بدوره نال نصيبه من الإنكار من الناحية النظرية، وبدرجة لا تقل قوة من الناحية العملية أيضاً. وإن كنا في الوقت الحاضر لا نرى حق الإعلان العام مهضوماً كما كان في عصور سالفة، فإن التجربة الأشد التي تنقض علينا من كل جانب هي وضع حدود ضيقة جداً للإعلان الخاص لينحصر في شخص المسيح مثلاً، وأسوأ من ذلك إنكار هذا الإعلان تماماً أو اعتباره جزءاً من الإعلان العام.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ويجب أن نكون على حذر من التطرف في أحد هذين الاتجاهين. وسيكون من الأفضل لنا أن نلقي نظرة على تاريخ الجنس البشري في ضوء الكتاب المقدس لنتعلم ما يدين به البشر للإعلان العام. وعندئذ سيتضح لنا أنه رغم كون البشر، في ضوء هذا الإعلان، قد حققوا إنجازات كبيرة في بعض النواحي، فإن معرفتهم وقدراتهم في مجالات أخرى تحدها حدود لا يمكن تجنبها.

عندما تعدى آدم وحواء وصية الله في الفردوس. لم يكن عقابهما فورياً ولا في كامل قوته. فلم يموتا في يوم خطيتهما بالذات، بل بقيا على قيد الحياة. ولم يزج الله بهما في جهنم، بل أسند إليهما عملاً على الأرض. ولم ينقرض نسلهما، بل وعدهما بنسل المرأة. وبالاختصار، فإننا نجد أنفسنا أمام حال كان الله يعرفه وسبق له أن أسَّسه إلا أن الإنسان لم يكن في مقدوره أن يتوقعه. أنه حال له صفة فريدة حقاً، حال يمتزج فيه غضب الله بالنعمة، والعقاب بالبركة، والدينونة بأناة الله، وكلها تختلط معاً. إنه الحال الذي ما زال قائماً في الطبيعة وبين البشر، الحال الذي يضم بين جوانبه أشدَّ المتناقضات.

فنحن نعيش في عالم غريب، عالم يواجهنا بمتناقضات هائلة: فهنالك العالي وهنالك المنخفض، الكبير والصغير، الجليل والسخيف، الجميل والقبيح، المأساوي والهزلي، الخير والشر، الصدق والكذب، وتتكدس كل هذه معاً في علاقات متبادلة لا يسبر غروها. ووقار الحياة وتفاهتها يستوليان علينا، كلٌّ بدوره. فتدفعنا الأحداث

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للتفاؤل حيناً، ثم التشاؤم أحياناً أخرى. والبكاء يفسح الطريق للضحك. والعالم كله يتسم بصفة ساخرة أحسن أحدهم إذ وصفها بأنها بسمة في دمعة.

والسبب العميق وراء حال العالم الحاضر هو هذا: إنه بسبب خطية الإنسان فإن الله يعلن على الدوام غضبه، إلا أنه، لمسرة مشيئته، يعلن نعمته بصفة دائمة أيضاً. فإن غضبه يفنينا، إلا أنه في الصباح يشبعنا برحمته (مز 90: 7، 14) فإنما إلى لحظة غضبه، وفي رضاه حياة. وقد يدوم البكاء ليلة، إلا أن الفرح يأتي في الصباح بكيفية فريدة لدرجة أن إحداهما تبدو وكأنها أصبحت الأخرى. والعمل بعرق الجبين لعنة وبركة في آن واحد. وكلاهما يشير إلى الصليب الذي هو في الوقت عينه قمة الدينونة، والنعمة في أقصى مداها. ولهذا فإن الصليب هو النقطة المركزية في التاريخ والذي فيه تنتهي كل المتناقضات.

بدأ هذا الحال بعد السقوط مباشرة، وخلال الفترة الأولى التالية، أي حتى دعوة الله لإبراهيم، وكانت له صفة متميزة. والحد عشر أصحاحاً الأولى من سفر التكوين لها أهمية كبرى، فهنا نجد نقطة الانطلاق وأساس تاريخ العالم كله.

****

وما يستحق الالتفات بكيفية مباشرة هو أنه رغم التمييز بين الإعلانين الخاص والعام، فإن كلاً منهما ليس بمعزل عن الآخر، فهنالك علاقة متبادلة دائمة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بينهما. وكل منهما موجه إلى الناس أي الجنس البشري كما كان عندئذ . . . . . ولم يعط الإعلان الخاص لأفراد أقلاء ولا لشعب خاص، بل لجميع من عاشوا عندئذ. فخلق العالم، والإنسان، وتاريخ الفردوس والسقوط وعقاب الخطية وإعلان نعمة الله الأول (تك 3: 15) وكذلك العبادة الجمهورية (تك 4: 26) وبداية الحضارة (تك 4: 17) والطوفان وبناء برج بابل، كل هذه ثروة حملتها البشرية لتتزود بها لرحلتها عبر التاريخ. ولذلك فليس غريباً أن نعثر عند مختلف شعوب العالم على روايات لهذه الأحداث ولو في صورة مشوشة. فلتاريخ الجنس البشري بداية عامة، وهو يبنى على أساس عريض عام.

ولكن هذه الوحدة وهذه العمومية سريعاً ما حدث انقسام بين البشر. وكان سبب ذلك هو الجانب الديني متمثلاً في العلاقة بين الله والبشر. كانت خدمة الله ما زالت تتسم بالبساطة، ولم تكن هنالك إمكانية عبادة جماعية كما نعرفها اليوم ما دامت البشرية لم تزد عن كونها بضع عائلات. إلا أن خدمة الله رغم ذلك كانت موجودة من البداية في صورة ذبائح وصلوات، وفي تقديم العطايا وتخصيص أفضل الأشياء لله (تك 4: 3، 4). ولا يحدثنا الكتاب المقدس عن كيفية وصول البشر إلى فكرة تقديم الذبائح. وتفسير العلماء لأصل الذبائح يختلف كثيراً في هذه الأيام. إلا أنه من الواضح أن هذه الذبائح الأولى كان نتيجة الإحساس بالاعتماد على الله والعرفان بفضله، وأن الذبائح كانت لها صفة رمزية، إذ كان يقصد بها التعبير عن تكريس الإنسان نفسه لله والخضوع له. فلم تكن العطية في حد ذاتها هي ما يهم، بل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

موقف المعطي الذي تعبر العطية عنه. فمن جهة الموقف ومن جهة العطية، قدم هابيل ذبيحة أفضل من قايين (عب 11: 4) ولذلك قابلها الرب بالاستحسان. إلا أنه من البداية كان هنالك انقسام بين بني آدم، انقسام بين الأبرار والأشرار، بين الشهداء والقتلى، بين الكنيسة والعالم. ومع أن الله اهتم بقايين حتى بعد ما ارتكب جريمة القتل، فبحث عنه واستنهضه لتغيير مسار حياته، وأحسن إليه بدلاً من أن يوقع به القصاص (تك 4: 9 – 16) فإن تصدع العلاقات ظل قائماً. ثم شق الانقسام طريقه حتى بلغ الذروة ووصل مؤقتاً إلى الانفصال بين أبناء قايين وأبناء شيث.

****

وتزايد عدم الإيمان والارتداد عن الله بسرعة فائقة من جيل إلى جيل في نسل قايين، إلا أنهم لم يصلوا درجة عبادة الأوثان والتماثيل. ولا يشير الكتاب المقدس إلى وجود مثل هذه بين البشر قبل الطوفان. فصور هذه العبادة الزائفة ليست أصيلة ولكنها نتيجة تطور لاحق، وهي دليل حاسة دينية كتمها أبناء قايين في قلوبهم. و لم يستسلم أبناء قايين للخرافات ولكن لعدم الإيمان، فوصلوا– عملياً إن لم يكن نظرياً– إلى إنكار وجود الله وإعلانه. فعاشوا وتصرفوا كأن الله غير وجود. فأكلوا وشربوا وتزوجوا وزوجوا كما سيكون عند مجيء ابن الإنسان (مت 24: 37، 38) واستنفدوا طاقاتهم سعياً وراء الحضارة، وبحثوا عن خلاصهم عن طريقها (تك 4: 17– 24)، ووجدوا سعادتهم في الحياة الطويلة التي امتدت أحياناً مئات السنين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

(تك 5: 3 والآيات التالية)، وكانت لهم مواهب عظيمة وقوة بدنية هائلة وكانوا يتباهون بقوة سيوفهم (تك 4: 23، 24)، تصوروا أن قوة ذراعهم تخلصهم.

وقد حافظ أبناء شيث على معرفة الله وعبادة الله لمدة طويلة، بل إننا نقرأ أنه في أيام أنوش بن شيث ابتدأ الناس يدعون باسم الرب (تك 4: 26) وهذا لا يعني أن البشر بدأوا يتعبدون لله بالذبائح والصلوات في ذلك الوقت، فهذا كان قائماً قبل ذلك، فنحن نقرأ عن التقدمات في قصة هابيل وقايين. ومع أنه لا توجد إشارة إلى الصلوات، فهي بلا شك كانت تشكل جزءاً من خدمة الله من البداية، فلا يمكن تصور خدمة الله دون صلاة. بل أن تقديم الذبائح إنما هو صلاة مجسمة. والصلاة تصحب الذبائح دائماً وفي كل مكان. كما أن التعبير الذي نقابله في (تك 4: 26) لا يعني أنه في ذلك الوقت بدأ الناس يدعون الله رباً، لأنه بغض النظر عن كون اسم يهوه معروفاً عندئذ أو غير معروف، فإن طبيعة الله التي يعبر عنها هذا الاسم لم تكن قد أعلنت حتى أعلنها الرب لموسى، وكان هذا بعد ذلك بكثير (خر 3: 14). فمن الأرجح أن معنى العبارة "يدعون باسم الرب" هو أن أبناء شيث انفصلوا كجماعة عن أبناء قايين، وأهم عقدوا اجتماعات عامة للاعتراف باسم الرب، وبذلك أعلنوا ولاءهم لعبادة الله بصورة علنية وفي اتحاد، مما ميزهم عن أبناء قايين. فصلواتهم وتقدماتهم لم تعد فردية فقط بل أصبحت أيضاً شهادة جماعة متحدة. فعلى قدر ما استسلم أبناء قايين لعبادة العالم وبحثوا عن سعادتهم فيه، ارتبط أبناء شيث بالله ودعوا باسمه في الصلاة والشكر والوعظ والاعتراف في وسط جيل شرير.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عن طريق هذا الوعظ العلني قُدمَّت الدعوة باستمرار لأبناء قايين للتوبــة. واستمر هذا حتى بعد ما تفشى الانحطاط الديني والأخلاقي بين أبناء شيث، واختلط هؤلاء أيضاً بالعالم. وقد دعى حفيد أنوش مهللئيل (تك 5: 15) وهذا الاسم يعني "حمد الله". وسار أخنوخ مع الله (تك 5: 22) وعبر لامك، عندما ولد ابنه نوح، عن أمله في أن ابنه سيكون لعائلته مصدر راحة وسط عملهم وتعب أيديهم بسبب الأرض التي لعنها الرب (تك 5: 29) ثم جاء نوح في النهاية يعظ عن البر (2 بط 2: 5) وأعلن لمعاصريه بروح المسيح إنجيل الخلاص (1 بط 3: 19، 20).

إلا أن أمثال هؤلاء القديسين أصبحوا شيئاً فشيئاً حالات نادرة. فلقد تزاوج أبناء شيث وأبناء قايين وأنجبوا أولاداً فاقوا الأجيال السابقة في القوة البدنية (تك 6: 4) وتفشى فساد الجنس البشري. وتصورات قلب الإنسان كانت شراً منذ حداثته فصاعداً، وامتلأت الأرض عنفاً عن طريقهم (تـــك 6: 5، 12، 13، 8: 21). ومع أن الله في طول أناته أجلّ قضائه مائة وعشرين سنة (تك 6: 3، 1 بـــط 3: 20) ومع أن وعظ نوح أشار إلى طريق النجاة، فعلى رغم ذلك كلـــه انـــدفعت البشرية قدماً نحو مصيرها الرهيب حتى هلكت في النهاية بمياه الطوفان.

****

بعد هذه الدينونة الرهيبة التي نجا منها نوح وعائلته المكونة من سبعة أفراد غيره، بدأ عهد أو تدبير جديد يختلف عن ذلك الذي كان قبل الطوفان. ولقد كان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الطوفان، كما يصوره الكتاب المقدس حدثاً فريداً في تاريخ الجنس البشري لا يقابله إلا احتراق العالم في الأيام الأخيرة (تك 8: 21 والآيات التالية) وهذا الطوفان كان بمثابة معمودية تدين العالم وتنقذ المؤمنين (1 بط 3: 19، 20).

وبدأت الحقبة الجديدة على أساس عهد تم إبرامه. فإذا بنى نوح مذبحاً، بعد الطوفان، وقدم عليه ذبائح لله معبراً عن طريقها عن شكره وعن صلاة قلبه، عندئذ قال الرب في نفسه، أنه سوف لا يوقع مثل هذه الدينونة على الأرض ثانية، أنه سيدخل نظاماً ثابتاً في مجرى الطبيعة. والموضوع الجوهري في هذه المناسبة هو أن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته (تك 8: 21) وهذه الكلمات تشبه كثيراً، وفي الوقت نفسه تختلف كثيراً عما نجده في (تك 6: 5) حيث نقرأ أن كل تصور أفكار قلب الإنسان إنما هو شر دائماً. والكلمات المستخدمة في (تك 6: 5) تتعلق بفكرة استئصال الأرض في حين أن الفكرة في (تك 8: 21) تتصل بفكرة حفظها. ففي الموضع الأول يقع التنبيه على الأعمال الشريرة التي عبّرت عن قلب البشرية القديم الفاسد. وفي الموضع الثاني يقع التنبيه على الطبيعة الشريرة التي تبقى في الإنسان حتى بعد الطوفان.

ولذلك فإنه يبدو أن الرب يرغب في أن يقول، في هذه الكلمات الأخيرة، إنه يعرف ما يتوقعه من خلائقه لو تركهم وشأنهم، فإن قلب الإنسان الذي يبقى دائماً كما هو ينجرف ثانية نحو مختلف أنواع الشر ويثير دائماً غضب الله ويدفعه لأن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يدمر العالم ثانية وهذا ما لا يريد تعالى أن يفعله. ولذلك فهو سيضع قوانين ثابتة للإنسان وللطبيعة ويرسم لهما منهجاً معيناً يحددهما به. كل هذا يتم في إطار العهد الذي وضعه الله لخليقته بعد الطوفان، ولذلك يطلق عليه عهد الطبيعة.

ومع أن هذا العهد ينبع من نعمة الله فهو يختلف من حيث المبدأ عما نسميه عهد النعمة الذي تأسس مع الكنيسة في المسيح. فإن عهد الطبيعة هذا يقوم على أساس أن قلب الإنسان شرير ويبقى شريراً من حداثة السن فصاعداً. ومضمونه هو رد البركة التي أعطاها الله عند الخليقة، بأن يثمر البشر ويتسلطوا على الحيوانات (تك 9: 1، 3، 7). ولهذا فهو يشمل وصية ضد القتل (تك 9: 5، 6). وقد أقام الله هذا العهد مع نوح باعتباره أباً للسلالة البشرية الثانية ومن خلاله يقوم العهد مع كل البشر، بل مع الخليقة كلها، ومع الكائنات الحية ومع الجماد سواء بسواء (تك 9: 9 والآيات التالية) وهذا العهد مختوم بظاهرة طبيعية هي قوس قزح (تك 9: 12 والآيات التالية) وهدفه تجنب دينونة ثانية مماثلة للطوفان، وضمان استمرار البشر والعالم في الوجود (تك 8: 21، 22؛ 9: 14- 16).

وبذلك فإن حياة الإنسان والعالم ووجودهما أصبحا يعتمدان على أساس مختلف أكثر رسوخاً. فلم يعد الأساس هو عمل الخليقة وناموسها. بل إنه عمل جديد خاص من أعمال نعمة الله وطول أناته. فإن الله لم يُضحِ ملتزماً أن يمنح الإنسان حياته ووجوده على أساس نظام الخليقة والذي تعداه الإنسان على أي حال.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولكنه بعهده هذا يلزم نفسه بالأحرى بالمحافظة على الخليقة رغم سقوطها وعصيانها. ومن هذا الوقت فصاعداً فإن حفظ الخليقة كلها وإدارة شؤونها لا يعتمدان على قرار الإرادة الإلهية، بل على أساس التزام العهد. فبمقتضى شروط العهد يصبح الله ملزماً أما نفسه أن يحفظ العالم ويبقي عليه. وفي هذا العهد أعطى اسمه ومجده، حقه وأمانته، كلمته ووعده ضماناً لخليقته لاستمرارية وجودها. وعلى ذلك فالقواعد التي تحكم الإنسان والعالم أصبحت ثابتة تماماً في عهد نعمة مع الطبيعة كلها. (تك 8: 21، 22) و (أي 14: 5، 6، 26: 10) و (مز 119: 90، 91، 148: 6) و(إش 28: 24) والآيات التالية (إر 5: 24؛ 31: 35، 36؛ 33: 20، 25).

وعهد الطبيعة هذا يوجد نظاماً جديداً يختلف تماماً عما كان عليه قبل الطوفان. فالقوى الطبيعية الهائلة التي كانت تعمل من قبل والتي عملت في الطوفان قد كبح جماحها، والكائنات الرهيبة التي كانت ضمن المخلوقات الحية الموجودة من قبل قد انقرضت الآن، والكوارث الهائلة التي كانت تهز الكون بأرجائه قد أفسحت في المجال لشيء من النظام. وأصبح عمر الإنسان على ظهر هذه البسيطة أقصر من ذي قبل وتناقضت قوته، ورقت طبيعته، وتهذب وفقاً لمطالب المجتمع، وخضع لمتطلبات أنظمته. وعن طريق هذا العهد وضعت للطبيعة وللإنسان قيود وحدود. وظهرت القوانين والأنظمة في كل مكان. فنشأت السدود والحدود لتقف في طريق تيار الشر. وأصبحت الخليقة تتميز بالنظام والمقاييس والعدد. فالله يكبح جماح الوحش في الإنسان وبهذا يمنحه الفرصة لينمي مواهبه وطاقاته في الفن والعلوم، في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الدولة والمجتمع، في العمل والوظيفة، وهكذا يحقق الله الشروط التي يصبح بها التاريخ ممكناً.

****

إلا أننا نقابل مرة أخرى انقطاعاً في مجرى التاريخ بتدخل الله في بلبلة الألسنة في بابل. فبعد الطوفان سكن البشر أولاً في أرض أراراط في المرتفعات الأرمينية وهنالك أصبح نوح فلاحاً (تك 9: 20) وعندما تزايد عدد البشر انتشر بعضهم شرقاً على ضفتي دجلة والفرات، وهكذا جاءوا إلى سهل شنعار أو ما بين النهرين (تك 11: 2) واستقروا هنالك، وبسرعة إذا ازدادوا ثروة وقوة فكروا في بناء برج عال ليبقوا لأنفسهم اسماً ويمنعوا تشتت البشرية. وفي تحد لأمر الله بأن يكثروا ويتسلطوا على كل الأرض، جعلوا مثلهم الأعلى أن يحققوا، عن طريق مركز خارجي، الوحدة بين الناس وأن يربطوا كل الجنس البشري معاً في مملكة عالمية تحقق مكانتها عن طريق القوة ويكون هدفها وكل ما تسعى إليه هو مجد الإنسان. وتظهر لأول مرة في التاريخ فكرة تمركز البشرية جمعاء وتنظيم كل قوتها وحكمتها وفنونها وعلومها وحضارتها ضد الله وضد ملكوته. إنها فكرة ظهرت مراراً وتكراراً في ما بعد وكان تحقيقها هو الهدف الذي سعى إليه أناس يعتبرهم البشر عظماء على مر العصور والأجيال.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

من ثم أصبح من الضروري أن يتدخل الله ليجعل تأسيس إمبراطورية أرضية أمراً مستحيل التحقيق بصفة نهائية، مهما بذل البشر من جهد. وحقق الله ذلك ببلبلة الألسنة. لأنه حتى في ذلك الوقت كانت هنالك لغة واحدة. ولا يوضح لنا الكتاب المقدس بصفة محددة كيف حدثت هذه البلبلة ولا في أية حقبة حدثت. إلا أن ما حدث هو أن البشر اختلفوا بعضهم عن بعض عضوياً ونفسياً. وبدأوا ينظرون إلى الأشياء نظرات متباينة ويطلقون عليها أسماء مختلفة، وترتب على ذلك أن انقسموا إلى أمم وشعوب وتشتتوا في جميع أنحاء الأرض. ويجب أن نتذكر أيضاً أن الجو كان مهيئاً لهذه البلبلة بانقسام البشر إلى قبائل وعشائر من نسل أبناء نوح (تك 10: 1 والآيات التالية) وعن طريق هجرة نسل نوح من أرمينيا إلى شنعار (تك 11: 2). وما كانت فكرة برج بابل لتظهر على الإطلاق لو لم يكن تهديد التشتت والخوف منه قائمين لمدة طويلة وبصورة جدية.

بهذه الكيفية يوضح الكتاب المقدس كيف نشأت الأمم الشعوب والألسنة واللغات. وفي الواقع إن انقسام البشر أمر فريد يصعب تفسيره. فالذين يولدون من نفس الوالدين لهم ذات الروح والنفس ويشتركون في ذات الجسد والدم، إلا أن مثل هؤلاء يتعالمون كغرباء. فهم لا يتفهمون بعضهم بعضاً ولا يتحقق التواصل بينهم. وأكثر من ذلك أن الجنس البشري منقسم عنصرياً حيث يتحدى أحدهم وجود الآخر في تصميم كامل لأن يحطم بعضهم بعضاً. فيعيشون قروناً بعد قرون في حروب باردة أو ساخنة. والغريزة العنصرية والإحساس القومي، والعداوة والكراهية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كلها قوى تقسم الشعوب بعضها ضد بعض. وهذا عقاب مذهل ودينونة مريعة لا يمكن أن يمنعها تجمع دولي ولا ارتباطات سلام تقيمها لغة "عالمية" أو حكومة تشمل العالم أجمع ولا حضارة دولية.

فإن كان البشر سيتَّحدون ثانية، فإن وحدهم لن تتحقق عن طريق تجمع خارجي آلي حول برج بابل أو غيره، بل عن طريق نمو من الداخل، تجمع تحت الرأس الواحد لا سواه (أف 1: 10)، عن طريق خليقة السلام التي توجد من كل البشر إنساناً جديداً (أف 2: 15) بالخليقة الجديدة وتجديد الروح القدس (أع 2: 6) وبأن يسير كل البشر في النور الواحد عينه (رؤ 21: 24).

ووحدة البشر التي يمكن أن تسترد عن طريق العمل الداخلي الذي يبدأ في الداخل ويثمر في الخارج، هي بالتالي وحدة تزعزعت أساساً في ذلك العمل الداخلي الذي أدى لبلبلة اللسنة. وقد تزعزعت الوحدة الزائفة من أساسها لتفسح المجال للوحدة الحقيقية. وتحطمت الدول العالمية ليتأسس ملكوت الله على الأرض. ولذلك، فمنذ ذلك الوقت فصاعداً تنفصل الأمم وتنتشر على وجه الأرض. ومن بين هذه الشعوب كلها اختار الله شعب اسرائيل ليحمل إعلانه. والإعلانان العام والخاص اللذان كانا مترابطين حتى الآن ينفصلان لفترة حتى يتقابلا ثانية عند الصليب. فقد انفصل شعب إسرائيل ليسير في طرق الله وشرائعه، ويدع الرب سائر الشعوب يسلكون طرقهم الخاصة (أع 14: 16).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

****

وطبيعي أنه ينبغي لنا ألا نفسر هذا باعتبار أن الله لم يبال بالشعوب الأخرى وأنه تركهم تماماً لمصيرهم المحتوم. فهذه فكرة لا يقبلها العقل. فالله هو الخالق والمتعهد والضابط لكل الأشياء، ولا يوجد شيء أو يحدث شيء دون قوته القادرة على كل شيء والحاضرة في كل مكان.

وفضلاً عن ذلك فإن الكتاب المقدس يتحدث مراراً وتكراراً عن نقيض فكرة إهمال الشعوب الأخرى. فحين قسم العلي الأمم، وحين فرق بني آدم نصب تخوماً لشعوب حسب عدد بني إسرائيل (تث 32: 8). وفي تقسيم الأرض نظر الرب إلى اسرائيل بعين الاعتبار وخصص لهم أرضاً تتناسب مع عددهم. إلا أنه أعطى الشعوب الأخرى أيضاً ميراثهم وأقام حدودهم. وصنع من دم واحد جميع البشر، ورسم لهم ألا يعيشوا في مكان واحد، بل على وجه الأرض كلها. لأنه لم يخلق الأرض عبثاً، بل إنما للسكن صورها (إش 45: 18). وعلى هذا الأساس فإنه رسم خطة للأزمنة الثابتة من قبل، عن الفترة المعينة للشعوب المختلفة وحدود مسكنهم. فمدة الحياة ومكان إقامة الشعوب كلها قررتها مشيئته ووزّعتها عنايته (أع 17: 26).

ومع أنه في أزمنة سابقة سمح الله للأمم أن يسيروا في طرقهم الخاصة فإنه لم يترك نفسه بلا شاهد فهو يصنع معهم خيراً ويعطيهم أمطاراً من السماء وأزمنة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مثمرة ويملأ قلوبهم طعاماً وسروراً (أع 14: 16، 17)، وهو يجعل شمسه تشــرق على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين (مت 5: 45). وعن طريــق إعلانه في الطبيعة والتاريخ أرسل صوته إلى قلوب الجميع وضمائرهم (مز 19: 1). فمنذ خلق العالم أظهر الله أموره غير المنظورة أي قدرته السرمدية ولاهوته عن طريق خليقته (رو 1: 19، 20) ومع أن الأمم لم يتلقوا شريعة مثل شــعب إســرائيل، ولذلك فبحصر اللفظ يعتبرون بلا شريعة. فإنهم بعملهم أحياناً ما تطلبه الشــريعة يظهرون أنهم في طبيعتهم الأخلاقية شريعة لأنفســـهم وان الشــريعة مكتوبــة في ضمائرهم. ويؤكد هذا أن صوت ضمائرهم الذي يعلو في داخلهم من بعد أفعالهم وأفكارهم إما يبرئهم أو يدينهم (رو 2: 14، 15).

فالإحساس الديني والأخلاقي عند الأمم يثبت إذاً أن الله أدام اهتمامه بهم. فبالكلمة الذي كان عند الله في البدء، والذي كان هو الله، كان كل شيء. وحياة الناس ونورهم كانا في الكلمة. فهم مدينون للكلمة بكيانهم ووعيهم، ووجــودهم وإدراكهم. وهذا ليس من حيث الأصل والمبدأ فقط بل أيضاً باعتبار أنه بمرور الزمن كان كلمة الله يحفظهم دائماً. فكلمة الله لم يخلق كل الأشياء فقط. وبهذا المفهــوم أعطى البشر حياتهم، وعن طريق الوعي والعقل والفهم أنار كل إنسان يأتي إلى العالم (يو 1: 3- 10).

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ويؤكد التاريخ شهادة الكتاب المقدس. ففي دائرة أبناء قـايين نشـطت اختراعات ومشروعات كثيرة حالاً بعد السقوط (تك 4: 17 والآيات التاليـة). وسريعاً ما حقق الذين استقروا في سهل شنعار بعد الطوفان مستوى عاليـاً مـن الحضارة. وكان نمرود بن كوش بن حام مؤسس مملكـة بابـل (تـك 8: 12). ويتحدث الكتاب المقدس عنه كصياد ماهر أمام الرب لأنه، بقوته البدنية الخارقة أباد الوحوش المفترسة وجعل سهول شنعار مأمونة للسكن مما جذب الناس للاسـتيطان فيها. وهكذا بنى مدناً كثيرةً مثل بابل وأرك وأكد وكلنة، وكلها في سهول شنعار. ومن هذا الموضع تغلغل إلى بلاد أشور ووضع أساس مدن نينوى ورحوبوت وكالح ورسن.

فلم أقدم مستوطني شنعار، طبقاً للكتاب المقدس، من بني سام بل من بـني حـام. والدراسات الآشورية الحديثة التي تهتم بالكتابات المسمارية في أشور تؤكد هـذا، حيث إنها تقول أيضاً إن قبيلة من السومريين، الذين لا يمكن اعتبارهم جزءاً مـن الساميين، هي التي استوطنت أولاً في شنعار. إلا أنه حدث أن بعض المهاجرين من نسل سام اكتسحوا في وقت لاحق شعب شنعار. وإن كانوا قد احتفظوا بلغتـهم فإنهم أخذوا حضارة السومريين واندمجوا بها ليكونوا الكلدانيين. وتغلـب العنصـر السامي عندما جعل حامورابي، الذي ربما كان أمرافل (تك 14: 1)، مدينة بابـل عاصمة لشنعار، ثم أخضع كل شنعار. ويقدم الفصل العاشر من سفر التكوين الفكرة عينها. فمع أننا نقرأ في الآية الحادية عشرة أن نمرود الذي من نسل حام ذهب إلى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أرض أشور وأسس مدناً هنالك، تقول الآية الثانية والعشرون أن أشور، أي الشعب الساكن في أشور، يتصل بأرفكشاد ولود وأرام وينتسب إلى نسل سام.

وقد بلغت الحضارة التي وجدت في أرض شنعار شأناً كبيراً في العلوم والفنون، والأخلاق والقانون، والتجارة والصناعة، وكلما زدنا إلماماً بها عن طريق الحفريات وقفنا أمامها مشدوهين. فنحن لا نعلم كيف ولا متى قامت، إلا أنها على أي حال تنقض الفكرة السائدة بأننا كلما توغلنا في التاريخ القديم صادفنا شعوباً متخلفة همجية. فما دمنا لا نتمسك "بدائية" ونعطي التاريخ فرصة ليقودنا في دراستنا فإن ذلك سيؤكد لنا فكر الكتاب المقدس من أن الحقبة الأخيرة من تاريخ البشرية أيام نوح، بقيادة رجال مثل نمرود، بلغت درجة رفيعة من الحضارة.

وفضلاً عن ذلك فإن هذه الحضارة لم تبق محصورة في أرض شنعار. فإذ ازداد البشر انتشاراً، بعد بلبلة الألسنة، واستقروا في أماكن متفرقة. وتباعدت بعض القبائل شيئاً فشيئاً عن مركز الحضارة والمدنية، وبحثوا لأنفسهم عن مأوى في المساحات الشاسعة في آسيا وأوربا وإفريقيا بقفارها ومخاطرها. ولذلك فليس غريباً أن هذه القبائل والشعوب، وقد عاشت في معزل عن غيرها، بلا روابط تجارية وهي تصارع دائماً مع الطبيعة الجامحة، استمرت على مستوى الحضارة الذي بدأت عنده، أو تراجعت عنه في بعض الأحوال. وأمثال هؤلاء من نتحدث عنهم في الدراسات التاريخية باعتبارهم من "الشعوب البدائية" أو "الشعوب غير المتحضرة". إلا أن هذه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

التسميات تفتقر إلى الدقة وتقود إلى الخطأ، لأننا نجد بين هــذه الشــعوب جميــع المميزات والمقومات التي تشكل عناصر الحضارة الرئيسية. فكلهم بشر يتميزون عن الكائنات الطبيعية، ولجميعهم إدراك وإرادة، وعقل وفهم، وأسرة ومجتمــع، ولهــم الأدوات التي يستخدموها وما يتزينون به.

بالإضافة إلى ذلك، فإنه لا يوجد فارق كبير بين تلك الشــعوب، بحيــث يستحيل أن نضع حدوداً بين الشعوب "المتحضرة" والشعوب " غير المتحضــرة". هنالك فارق حضاري كبير بين من يسكنون في الأدغال في جنوب إفريقيا وسكان جزر المحيط الهادي في آسيا وأجناس الزنوج. إلا أهم مهما اختلفوا يظلون يشتركون في الفكر والتقليد– عن الطوفان مثلاً– كما في الذكريات والآمال، وكل هذه تشير إلى أصل مشترك.

وكل هذا يصدق بالأكثر على الشعوب المتمدنة، كــالهنود والصــينيين، والفينيقيين، والمصرين. إن أساس "الصورة العالمية" التي نجدها بين هؤلاء الشعوب هي نفسها تلك التي تسترعي التفاتنا في حفريات بلاد شنعار. هذا هو أســاس كــل حضارة، ومهد البشرية. فقد انتشرت البشرية من وسط آسيا ومن هــذا المركــز أخذت عناصر الحضارة التي تشترك فيها الشعوب المتحضرة والتي طورها كل منهم في استقلال عن الآخرين وبأسلوبه الخاص. إن حضارة بابل القديمة، بكتابتها وعلوم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفلك والرياضيات والتقويم وما أشبه، ما زالت هي الأساس الذي تبنى عليه حضارتنا.

****

إلا أننا، عندما نراجع تاريخ الحضارة كله من زاوية دينية أخلاقية، نحس إحساساً عميقاً بعدم الرضى، ونستفيق من أوهامنا. فقد قال بولس الرسول أن الأمم، وقد عرفوا الله عن طريق الإعلان العام، لم يمجدوه أو يشكروه كإله، بل حمقوا في أفكارهم، وأظلم قلبهم الغبي، وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء وأبدلوا بمجد الله الذي لا يفنى صورة الإنسان الذي يفنى والطيور والدواب والزحافات (رو 1: 21 – 23) وأي دراسة تاريخية منصفة لتاريخ ديانات الشعوب المختلفة تقودنا إلى النتيجة عينها. يستطيع المرء بمساعدة فلسفة زائفة أن يدرس صور الديانات المختلفة ويصل إلى جوهر غامض للديانات في مشاعر البشر، فيغض الطرف عن جدية النتيجة التي وصل إليها بولس الرسول. إلا أن الحقيقة تبقى أن البشرية في طريق حضارتها الطويل لم تمجد الله و لم تشكره.

حتى بين أقدم من سكنوا سهول شنعار، نقابل عبادة المخلوق بدلاً من الخالق. ويرى بعضهم أن الفكرة التي تأسست عليها ديانة البابليين، شأنها شأن الفكرة التي تتأسس عليها الديانات الأخرى، إنما هي فكرة وحدانية الله. ولا شك أن هذه الفكرة كانت موجودة حتماً قبل تطبيقها على المخلوقات. إلا أن الدين عند

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

البابليين انطوى في الواقع على تمجيد سائر أنواع المخلوقات التي اعتبروها آلهة. ولا يمكننا، في غياب المعلومات التاريخية اللازمة، أن نفسر كيف حدث التحول من عبادة الإله الواحد الحقيقي إلى تمجيد كافة المخلوقات.

إلا أن الافتراض القائل بأن الديانات تطورت من عبادة الشياطين (أي تمجيد سائر النفوس والأرواح وبعض الرموز من النباتات والحيوانات) مروراً بتعدد الآلهة (التمجيد والعبادة لأنواع الآلهة كافة) إلى عقيدة التوحيد (تمجيد الإله الواحد وعبادته) إنما هو افتراض جزافي لا يمكن إثباته. فلم يحدث مثل هذا التطور في أي مكان. وإن كان شعب إسرائيل حالة متميزة مختلفة. إلا أن التاريخ يعلّمنا مراراً وتكراراً أن البشر ينحدرون من الاعتراف بالإله الواحد إلى عبادة آلهة كثيرة. وهذا ما نلاحظه في تاريخ إسرائيل وفي تاريخ كثير من الكنائس المسيحية، وحتى في العصر الذي نعيش فيه. فعندما يهجر الناس الإيمان بالإله الواحد، تظهر على الساحة أفكار تعدد الآلهة بكلّ أنواعها وممارسة الخزعبلات المتنوعة.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا يوجد مطلقاً فارق كبير بين ما يسمونه الديانات "العليا" والديانات "الدنيا"، بين ديانات من يسموهم شعوباً متحضرة وغير متحضرة، كما يؤكد بعضهم أحياناً. فالأفكار والممارسات نفسها نجدها بين الشعوب الوثنية كلها بصورة أو بأخرى. كما أننا نجد هذه الأفكار والممارسات نفسها في صور

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مختلفة بين الشعوب المسيحية، وهي تنتعش حيثما ضعف تأثير الديانة المسيحية في العصر الحديث.

فما هي هذه الأفكار والممارسات؟ هنالك أولاً عبادة الأوثان والصور. ونجد هذه بين الشعوب كافة. وعبادة الأوثان هي أن نضع شيئاً آخر في مكان الإله الواحد الحقيقي، أو إلى جواره، وأن نضع الثقة في ذلك الشيء. وتكون هذه البدائل مخلوقات أحياناً مثل القبة الزرقاء مثلاً بشمسها وقمرها ونجومها، كما في الديانة البابلية والتي تسمى لذلك ديانة عبادة النجوم. كما أنها قد تكون أحياناً عبادة الأبطال أو العباقرة أو عظام الرجال ينظر الناس إليهم كوسطاء يقفون في منتصف الطريق بين الآلهة والبشر كما كان اليونانيون مثلاً وغيرهم يفعلون. وأحياناً أخرى تكون الوثنية في صورة عبادة الأسلاف الذين كانوا يعتقدون أنهم يبلغون بعد الموت حالة أسمى، كما نجدها في الديانة الصينية. وقد تكون البدائل الوثنية لعبادة الله بعض الحيوانات أيضاً، كالثور والتمساح وما أشبه، مثل ديانة قدماء المصريين. أو– لنقدم مثلاً آخر– تكون الوثنية في صورة عبادة النفوس أو الأرواح، فيتصورون أن هذه تحل بصورة إما دائمة وإما مؤقتة في بعض الخلائق، سواء كانت كائنات حية أم جماداً. وبذلك تصبح هذه موضوع العبادة في ديانة الشعوب، متحضرة كانت أو غير متحضرة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ومهما اتخذت الوثنية من مظاهر فإنها تمثل دائماً عبادة المخلوق بدلاً من الخالق، حيث يزول الفارق بين الله والعالم. وهكذا فات الوثنيون أن يدركوا قداسة الله، أي تميزه وسموه المطلق عن كافة الخلائق.

ونرى ثانياً أن أفكاراً زائفة كثيرة عن الإنسان والعالم تصاحب الوثنية. فالدين عند الأمم ليس شيئاً مستقلاً، بل إنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجوانب الحياة كافة، وبالدولة والمجتمع، والفنون والعلوم. فلا نجد على الإطلاق ديناً يتكون من مجرد مشاعر ومواقف معينة. فالدين هو علاقة الإنسان بالله يتحكم في سائر العلاقات الأخرى، ولذلك علاقة الإنسان بالله يتحكم في سائر العلاقات الأخرى، ولذلك فهو يفترض وجهة نظر محددة من نحو الإنسان والعالم، وعن أصل جميع الأشياء وجوهرها وغرضها. والأفكار الدينية التي تواكب الاعتقاد بإله من الآلهة تؤثر في الماضي والمستقبل. فهنالك ذكريات للفردوس وتوقعات للمستقبل في جميع الديانات. كما أن هنالك أفكاراً عن أصل الإنسان والعالم ومستقبلهما. وهنالك أفكار عن عصر ذهبي كان في البداية، تبعه عصر فضي ثم حديدي وخزفي. كما أن هنالك أفكاراً عن خلود الإنسان وعن الحياة بعد الموت، وعن دينونة تنتظر الجميع في النهاية وعن مصير مختلف ينتظر الأبرار والأشرار عندئذ. وفي الديانات المختلفة تلقى هذه الأفكار تنبيهاً مختلفاً. فالديانة الصينية تنظر إلى الماضي وتتكون من عبادة الأسلاف. وديانة قدماء المصريين تتطلع إلى المستقبل، وتشغل نفسها بالموتى، وفي الواقع عبادة الموت. إلا أن هذه العناصر موجودة في كل الديانات ولو بدرجات متفاوتة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وتشترك أشكال الديانات المختلفة كلها في مزج الحق بالكثير من أنواع الخطأ والحماقة. فإذا انمحى الخط الفاصل بين الخالق والمخلوق ضاعت الحدود بين العالم والإنسان، النفس والجسد، السماء والجحيم. وعلى جميع المستويات امتزج الطبيعي بالأخلاقي، والمادي بالروحي، والأرضي بالسماوي. وغيبة الإحساس بقداسة الله، يقابلها غياب الإحساس بالخطية. فالعالم الوثني لا يعرف الله، ولا يعرف العالم والإنسان ولا الخطية والبؤس حق المعرفة.

ونرى في المقام الثالث أن كل ديانات الأمم تتميز ببذل الجهد لبلوغ الخلاص عن طريق السعي البشري. فالوثنية تقود بطبيعتها إلى ديانة الإرادة الذاتية. فإذ يهجر المرء عبادة الإله الواحد الحقيقي، ولا يكون هنالك إعلان موضوعي تاريخي حق يلجأ المرء إليه، فإن الإنسان يسعى لأن يجبر الآلهة أو الأرواح التي اخترعها هو لتعلن عن نفسها. وعليه فالخزعبلات والتنبؤ بالطالع والسحر كلها تصحب دائماً عبادة الأوثان. والعرافة هي الاسم الذي يطلقونه على محاولة الشخص معرفة إرادة الآلهة بنفسه أو بمعاونة العرافين والذين ينبئون بالطالع والكهنة والذين يدعون تقديم الإعلانات وما أشبه، وعن طريق التنجيم وتفسير الأحلام والوسائل الأخرى. والسحر هو الاسم الذي يطلق على محاولة تسخير إرادة الآلهة لخدمة الشخص نفسه عن طريق صلوات محددة، وتقديم بعض القرابين طواعية، واحتمال السياط وما أشبه من الممارسات.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وطبيعي أن مثل هذه الأشياء تتخذ صوراً متعددة، إلا أنها كلها لها مكانها في الديانات المختلفة وتمثل عنصراً ضرورياً في عبادة الأمم. هنا يحتل الإنسان مكانـــاً، وهو الذي يسعى لأن يحقق الخلاص لنفسه. ولا يوجد في أي من هذه الديانات تفهم للطبيعة الحقيقية للفداء (المصالحة) والنعمة.

****

مع أن هذا العرض المختصر يصلح لتقديم الخصائص الأساسية للـــديانات الوثنية بصفة عامة، فإن بعض التطور قد وجد طريقه إلى بعضها، مما يستحق منا أن نوليه التفاتنا وندرسه بصفة خاصة ولكن باختصار. فمتى حدث أن ديانة شعب ما فقدت من ناحية طابعها وأضحت مجموعة هائلة غريبة مـــن أنـــواع الخـــزعبلات والعرافة كافة، فيما الثقافة والمدنية تتقدمان بسرعة من ناحية أخرى، فإن صراعاً لا بد أن يحدث. وكنتيجة لهذا الصراع، وذلك بلا شك من تدبير عناية الله، يولد رجال يحاولون أن يوفقوا بين الاثنين ويعملوا على انتشال الديانة من الهوة التي تردت فيها. وكان زاردشت، الذي عاش في بلاد فارس ربما قبل القرن السابع قبل الميلاد، شخصاً مثل هؤلاء. وكذلك كان كنفوشيوس في القرن السادس قبل الميلاد في الصين، وبوذا في القرن السادس قبل الميلاد في الهند. ومؤسسو ديانات أخرى، وكثيرون غيرهم وإن لم يكونوا معروفين بالاسم.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولا شك أن الديانات التي أسسها هؤلاء تعتبر من نواح كثيرة أسمى من الديانات القبلية التي نشأوا فيها. إن نظريات التطور والتدهور سواء في ما يتعلق بالديانات أو بنواحي الحضارة المختلفة، كلها نظريات ذات جانب واحد لا تصلح لأن تقدم تفسيراً لوفرة المظاهر التي نراها واضحة في كل هذه، أو على الأقل لأن تشرحها جميعاً داخل إطار صياغة واحدة. ففترات الازدهار والتدهور، أو الانتعاش والانتكاس، موجودة بصفة مستمرة في تاريخ جميع الشعوب وفي مختلف مناحي الحياة.

بالإضافة إلى ذلك، لا يمكن أن نقول أن هؤلاء الرجال تعمدوا خداع الناس فكانوا آلات الشيطان ووكلاءه. فقد كانوا أناساً جادين، صارعوا داخل نفوسهم ذلك التضارب القائم بين الإيمان القبلي أو الشعبي ووعيهم المستنير. وعن طريق النور الذي نالوه سعوا نحو بلوغ سعادة حقيقية.

إلا أنه مع تسليمنا بذلك، تظل تلك الديانات– رغم ما نالت من إصلاح– مختلفة في الدرجة لا في النوع عن عبادة الأوثان. صحيح أن هؤلاء الرجال شذبوا شجرة الديانات الزائفة، إلا أنهم لم يقتلعوها من جذورها. وقد نبَّه زرادشت في تعليمه على التعارض بين الخير والشر، إلا أنه نظر إلى هذا التباين لا باعتباره أخلاقياً فقط. بل اعتبره مادياً من الدرجة الأولى. ولذلك اضطر لأن يميز بين إله صالح وإله شرير، وخلق بذلك ازدواجية امتدت إلى كل شيء، في الطبيعة وفي الإنسان وفي عالم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الحيوان، وكانت النتيجة الطبيعية تشوهت الحياة. وكانت الكنفوشوسية ديانة دولة تكونت من عناصر دينية خارجة عنها وجمعت عبادة آلهة الطبيعة والأسـلاف. ولم تكن البوذية في البداية ديانة على الإطلاق، بل فلسفة اعتبرت أن الألم هو مصدر كل شر، وأن الوجود هو مصدر الألم، ولذلك نادت بأن الخلاص يتحقق بامتناع المرء عن أشياء كثيرة، وفقدان الوعي، وإبطال الوجود. وغير هذه من الديانات لم تفسح في المجال للشركة بين الله والإنسان، لأنها لم تتفهم سبب انفصال الإنسان عن الله ولا طريق المصالحة، وخلاص السماء عندها يتكون من الإشباع الكامل للرغبات الحسية.

ولذلك فإذ نراجع كل مجال الإعلان العام، نكتشف أنه– من ناحيـة– ذو قيمة كبيرة وأنه أوتى ثماراً غنية، إلا أن البشر– من الناحية الأخرى– لم يجـدوا الله عن طريق نوره. إننا نجد الإحساس الديني والأخلاقي في كل البشر علـى أسـاس الإعلان العام، وهم لذلك يدركون إلى حد ما الحق والباطل، الخير والشر، العـدل والظلم، الجمال والقبح، وأن يعيشوا في علاقة الزواج والأسرة، المجتمع والدولـة، خاضعين للضوابط الداخلية والخارجية حتى لا يدركهم الانحلال والهمجية، وأنهـم داخل نطاق هذه الحدود ينشغلون بالإنتاج والتوزيع، والاستمتاع بكافـة الأمـور الروحية والمادية. وبالاختصار، فإن الإعلان العام يحافظ على بقاء الجنس البشـري ويصون وحدته، ويمكنه من الاستمرار ومن تطوير إنتاجه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلا أنه على الرغم من هذا كله تظل الحقيقة التي عبر عنها الرسول بولس قائمة، وهي أن العالم لم يعرف الله في حكمته عن طريق الحكمة (1كو 1: 21). وعندما يصف الرسول العالم بالحكمة فإنه يعني ما يقول بجدية كاملة. ففي ضوء الإعلان العام جمع العالم كنزاً من الحكمة، تلك الحكمة التي تتعلق بالحياة الأرضية. إلا أن حكمة العالم تجعل العالم أقل عذراً، لأنها تثبت أن الجنس البشري لم تنقصه تلك العطايا الإلهية مثل العقل والفهم والإمكانيات الذهنية والأخلاقية. إن حكمة الإنسان توضح أن الإنسان، بسبب ظلام فكره وقساوة قلبه، لم يستخدم العطايا التي منحه الله إياها استخداماً صحيحاً.

حقاً إن النور سطع في قلب الظلام، إلا أن الظلام لم يدركه (يو 1: 5). كان الكلمة في العالم ولكن العالم لم يعرف هذا الكلمة (يو 1: 10) وعليه فالعالم- بكل حكمته- لم يعرف الله (1 كو 1: 21).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الخامس

أسلوب الإعلان الخاص

إن عدم كفاية الإعلان العام يثبت لزوم الإعلان الخاص. إلا أننا يجب أن نتفهم ضرورة الإعلان الخاص تفهُّماً صحيحاً. فهذا لا يعني أن الله كان مضطراً أو مجبراً أن يعلن عن نفسه إعلاناً خاصّاً لسب داخلي يتعلق بكيانه هو أو لسبب خارجي يتعلق بالظروف. فالإعلان الإلهي كلّه، وبصفة خاصة ما يأتي إلينا في المسيح عن طريق الكتاب المقدس، إنما هو من عمل نعمة الله، بمحض حريته، ويرمز إلى فضله الذي لا نستحقه وطالما زيَّفناه. ولذلك فإنه لا يمكننا أن نتحدث عن ضرورة الإعلان الخاص وعدم إمكانية الاستغناء عنه إلاّ بمعنى أن هذا الإعلان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقصد الذي حدّده الله لخليقته. فإن كان الله قد سر بأن يرد الخليقة التي دفعت بها الخطية إلى الخراب، وأن يعيد خلق الإنسان على صورته، وأن يجعله يحيا ثانيةً في سعادة السماء الأبدية، فإنّ الإعلان الخاص ضروري، لأن الإعلان العام لا يكفي لتحقيق هذا الغرض.

وفي الواقع أننا لا يمكن أن نعتبر حتى هذا الهدف السبب الأول الذي يجعل الإعلان الخاص ضرورياً. لأننا عندما نرى عدم كفاية الإعلان العام لتحقيق غاية العالم والإنسان ونعترف بذلك، فإننا نرى أيضاً أننا مدينون بهذا الاقتناع للإعلان الخاص. فإننا بالطبيعة نعتبر أنفسنا وإمكاناتنا، العالم وكنوزه، كافية لخلاصنا.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والديانات الوثنية لا تشذ عن هذه القاعدة بل تؤكدها. صحيح أنهم يتحدثون عن الكهنة والعرافين ووسطاء الإعلانات الإلهية وما أشبه. ويلجأُون إليهم كمن يحملون إعلانات خاصة، وهذه الحقيقة في نفسها دليل قوي على أن الإعلان العام غير كاف، وأن كل واحد يحس في قلبه بالحاجة إلى إعلان إلهي يختلف عمّا تقدمه الطبيعة والتاريخ، إعلان يختَبر فيه الله عن قرب. إلا أن هذه الإعلانات الخاصة التي تلجأ الوثنية إليها تبيّن أيضاً بوضوح أن الإنسان الذي فقد الشركة مع الله لا يمكن أن يفهم إعلان الله في الطبيعة أيضاً، وأنه وهو يلتمس طريقه نحو الله، يمضي في طرقه الخاصة. وهذا يبتعد به شيئاً فشيئاً عن معرفة الحق، ويزيده استعباداً لخدمة الأوثان والخطية (رو 1: 20- 32).

ولذلك فإعلان الله الخاص ضروري للفهم الصحيح للإعلان العام في الطبيعة والتاريخ، في القلب وفي الضمير. ونحتاج إلى الإعلان الخاص لتنقية مضمون الإعلان العام من الأخطاء البشرية كافة، وبذلك نقوِّم هذا الإعلان تقويماً صحيحاً. وإذ نسلك في نور الكتاب المقدس، عندئذ ندرك، أوّل وهلة، أن الإعلان العام له قيمة عظيمة بالنسبة إلى الحياة البشرية كلّها، ولكنه مع كل غناه لا يكفي ولا يفي بحاجة الإنسان كي يبلغ غايته المنشودة الصحيحة.

فإن كنا، في سبيل بلوغ إدراك واضح وترتيب منظم لمعالجة الدراسة، قد تحدثنا أولاً عن الإعلان العام وعن عدم كفايته، لنتقدم من ثمّ إلى دراسة الإعلان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الخاص، فإننا لا نتبع المنهج الدراسي وكأننا ونحن نتحدث عن الإعلان العام نستطيع أن نضع الإعلان الخاص جانباً دون التفات إلى مضمونه طوال الوقت. فإن الإعلان الخاص، على نقيض ذلك، هو الذي قادنا في دراستنا السابقة وألقى الأضواء على الكيفية التي تناولنا المشكلة بها.

ولذلك ففي دراستنا التالية للإعلان الخاص الآن، لا ندّعي أننا نقوم بدراسة ما يسمونه الدراسات الخالية من الافتراضات. وسوف لا نسلك سبيل تسلسل الديانات المختلفة، كما يفعل من تساورهم الشكوك في عصرنا الحاضر، لنكشف هل تقدم لنا هذه إعلاناً خاصاً عن الله تبتغيه قلوبنا. فنحن مدينون للإعلان الخاص المعطى لنا في المسيح لنعرف زيف الديانات الباطلة، ولنعرف أن عبادة الأوثان والصور والشعوذة وإدعاء معرفة الطالع والخرافات، سواء كانت في صورة بدائية أو صورة مهذبة، كلها خطية. فلو وضعنا الإعلان الخاص جانباً و لم ندخله ضمن حساباتنا ولو بصفة منهجية مؤقتة لكان ذلك يبدو بمثابة تعمُّد إطفاء النور الذي نستنير به. لو فعلنا هذا لأثبتنا أننا نحب الظلمة أكثر من النور لكي لا تظهر أعمالنا (يو 3: 19- 21).

ولا شك أن الإعلان العام يمكن أن يوضح- إلى درجة ما- لزوم الإعلان الخاص والحاجة إليه. كما يمكن أن يشير إلى أسباب قوية تجعل مثل هذا الإعلان ممكناً. فإن لم يسلك المرء سبيل المادية وفكرة وحدة الوجود (أي أن الله والعالم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المادي وحدة واحدة) بحيث ينكر كل إعلان إلهي، وإن كان يؤمن فعلاً بوجود إله شخصي خلق العالم وأعطى الإنسان نفْساً خالدة وجعل مصيره الخلاص الأبـــدي، وهو مازال يحفظ كل الأشياء ويضبطها بعنايته، فلا يبقى سبب جوهري للجـــدل بشأن إمكانية الإعلان الخاص. فالخليقة نفسها إعلان. إنها إعلان خاص جداً، يفوق الطبيعة تماماً، وهو رائع حقاً. وكل من يقبل فكرة الخلق يقر من حيث المبدأ بإمكانية الإعلانات الأخرى كافة، وحتى فكرة التجسد. إلاّ أنه مهما عملت فكرة الإعلان العام على تدعيم لزوم الإعلان الخاص وإمكانيته، فإنها لا تستطيع أن تقول شيئاً عن حقيقته. فهذا يعتمد تماماً على عطية الله المجانية. فلا يمكن إقامة الدليل على حقيقة الإعلان الخاص إلاّ بوجوده فعلاً. ولا يمكن للمرء أن يرى هذا الإعلان الخاص وأن يعترف به إلاّ على أساس نوره هو.

****

هذا الإعلان الخاص الذي تحدث الله فيه أولاً عن طريق الأنبياء ثم عن طريق الابن (عب 1: 1) والذي لا نقبله نتيجة مجادلات وبراهين بل بإيمان يشبه إيمـــان الأطفال، هو على علاقة مستمرة بالإعلان العام، ولكنه في الوقت نفسه يتميّز عنه بصورة جوهرية. وهذا التمييز أو الاختلاف يبرز، كما قلنا في إشارة عابرة من قبل، وكما يجب أن نشرح الآن، بصفة خاصة في الكيفية التي يحدُث بها، وفي المضـــمون الذي يشمله، وفي الغرض الذي يهدف إليه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والكيفية التي يتم بها الإعلان الخاص ليست هي بعينها دائماً، ولكنها تختلف باختلاف الوسائل التي يستخدمها الله لأجلها. ولذلك فهي تتميز بأسماء مختلفة مثل: الظهور، الإعلان، الإظهار، التعريف، التعليم وما شابه ذلك. والحديث عن الإعلان على أنه تكلُّم أمرٌ مثير بصفة خاصة. ويستخدم الكتاب المقدس هذه الكلمة عن عمل الله في الخليقة وفي العناية. قال الله: "ليكن نور، فكان نور (تك 1: 3) وبالكلمة صنعت السماوات وبنسمة فمه كل جنودها (مز 33: 6) إذ يتكلم فيكون ويأمر فيصير (مز 33: 9) وصوت الرب على المياه ويتكلم في الرعد، يكسر أرز لبنان، ويزلزل البرية، ويجعل الأعداء يهربون ويفنيهم (مز 29: 3– 9؛ مز 104: 7، إش 30: 31، 66: 6) وكل أعمال الله هذه في الخليقة وفي العناية يمكن أن نسميها بحق تكلُّماً أو أقوالاً، لأن الله شخص واعٍ مفكر يوجد الأشياء بكلمة قدرته، ويضع أفكاراً في عقل الإنسان، يمكن للإنسان باعتباره على صورة الله وشبهه أن يقرأها وأن يفهمها. ولا شك أن الله يريد أن يقول شيئاً للإنسان من خلال أعماله.

وهنالك تضارب طفيف حول صوت الله في أعمال يديه. وكثيرون ممن ينكرون الإعلان الخاص، مولعون رغم ذلك بالحديث عن إعلان الله في الخليقة. ولكن بين من يفعلون ذلك اختلافاً كبيراً. فهنالك من يجدون هذا الإعلان إلى حد كبير في الطبيعة، وآخرون في التاريخ ومشاهير رجاله، فيما يجده آخرون في تاريخ الديانات وقادة الأديان. وبالإضافة إلى ذلك فقد ينبّه الواحد على الإعلان الذي يأتي للإنسان من الخارج سواء عن طريق الطبيعة أو التاريخ، فيما ينبّه الآخر على ما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يحدث داخل الإنسان نفسه، في قلبه وعقله وضميره. ويتزايد الاعتقاد اليوم بوجود علاقة وثيقة بين الدين والإعلان، أو أن لكليهما المضمون عينه وأنهما في الواقع جانبان لموضوع واحد. فالإعلان هو الجانب الإلهي والدين هو الجانب البشري في العلاقة بين الله والإنسان. والفكرة هنا هي أن الله يعلن عن نفسه للإنسان بقدر ديانة الإنسان، وأن الإنسان يمتلك من الدين بقدر ما يعلن له الله عن نفسه.

إلا أن لهذه الفكرة جذورها في ذلك الإيمان بوحدة الوجود (pantheism)، الإيمان الذي يطابق بين الله والإنسان ولذلك يطابق بين الإعلان والدين. وكل من يتمسكون بهذا الرأي يكاد أن يستحيل عليهم أن يتحدثوا عن إعلان حقيقي لله ولا حتى في الطبيعة والتاريخ أو في العالم والإنسان. فعندما نفهم الإعلان فهماً صحيحاً نرى أنه يفترض، كما سبقت الإشارة، أن الله يدرك نفسه، ويعرف نفسه، ولذلك فهو يستطيع، بمقتضى مسرته، أن يقدم لخليقته شيئاً من معرفته. أما فكرة وحدة الكون، فإنها تنكر أنّ لله شخصية أو إدراكاً أو معرفة لذاته وبالتالي أن له إرادة عاقلة. وعلى هذا الأساس فإن الله لا يعدو كونه جوهراً أو طاقةً لكل الأشياء وموجوداً في كل شيء. ويترتب على ذلك– على أحسن الفروض– أن مذهب وحدة الكون يمكن أن يتحدث عن كشف أو عمل إلهي غير واع وغير مقصود. ومثل هذا الكشف أو العمل الإلهي لا يقدم لعقل الإنسان أفكاراً أو آراء أو معرفة لله، ولكنه يثير في قلب الإنسان على أحسن الافتراضات، بعض أنواع الانفعال والعواطف والمشاعر. ويمكن للإنسان عندئذ أن يتناول هذه، وفي استقلالية وحرية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كاملة وبحسب مستوى ثقافته وتعليمه، وأن يعبر عنها بالكلمات. ويترتب على هذا عملياً أن نجعل من الدين في الإنسانية وفي الفرد عمليّةً بها يدرك الله نفسه ويتعرّف تعالى بنفسه. وعلى ذلك، فالله لا يكلم الإنسان ولا يعلن ذاته له. بل إن الإنسان هو الذي يعلن لله ذات الله.

وإن كان الاتجاه الفكري لمذهب وحدة الكون ما زال يستخدم تعبيرات مثل الإعلان وصوت الله وما أشبه، فإنه لا يقتبس هذا من فلسفته الخاصة، إذ لا مجال فيها لذلك. ولكنه يقتبسها من نظرة الكتاب المقدس إلى العالم والحياة. ولذلك فاستخدامه لها إنما يزيّفها. ويشير الكتاب المقدس حتى إلى الإعلان العام بأنّ الله يتكلم، وهذا من منطلق أن عند الله ما يريد أن يقوله للإنسان في هذا الإعلان وأنّه يقوله فعلاً. ولذلك، فالكتاب المقدس يتمسك بفكرة أن الله والإنسان مختلفان من حيث النوع، وأن الإعلان والدين مختلفان من حيث النوع أيضاً. فإن كان لله فكره الخاص، وإن كان يعرف نفسه، وإن كان قد عبّر عن هذا الفكر بدرجة كبيرة أو صغيرة عن طريق أعماله، فإن إمكانية أن الإنسان يسيء، بسبب ظلام فكره، فهم أفكار الله وتصبح تصوراته باطلة يمكن أن تكون إمكانية حقيقية. وفي هذا الحال فإن الدين يمكن أن يكون، بدرجة ضئيلة جداً الجانب الآخر للإعلان، لأنه في الواقع إنما يكون تمثيلاً مشوّهاً يحمل بين طيّاته الجرم والخطأ.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وإذ نفسر الإعلان العام كما رأيناه، وإذ نطلق عليه كـــلام الله أو صـــوته بالمعنى الذي فهمناه. فإن الكتاب المقدس يفسح في المجال لمزيد من الكلام الأساسي من جانب الله، ممّا يستحق أن يُسمّى كلاماً، وهو ما نجده في الإعـــلان الخـــاص. والكتاب المقدس كلُّه يقدم لنا الله باعتباره كائناً مدركاً لنفسه تماماً، كائناً يفكّـــر ولذلك يتكلم. إننا نذكر السؤال في (مز 94: 9) "الغارس الأذن ألا يسمع؟ الصانع العين ألا يبصر؟"، ويمكن أن نضيف سؤالاً آخر يتماشى مع المعنى الذي قصده الروح القدس فنقول: ذاك الذي يعرف نفسه معرفة كاملة، ألا يمكنه أن يعرف خلائقـــه بنفسه؟ وكل من ينكر هذه الإمكانية فإنه لا ينكر الإله المجدِّد فقط بل إله الخلـــق والعناية أيضاً كما يقدّمه إلينا الكتاب المقدس. وعلى ذلك، فكل من يتفَهم كلام الله أو صوته في الإعلان العام تفهُّماً صحيحاً، أي حسب مفهوم الكتاب المقدس، فـــلا يكون له حقُّ الاعتراض على صوت الله في الإعلان الخاص. فيمكن لله أن يعلن نفسه بكيفية خاصّة لأنه يعلن نفسه بكيفية عامة. وهو يتكلم فعلاً لأنه يستطيع أن يتكلم مجازاً. وهو يقدر أن يعيد الخلق لأنه هو خالق كل الأشياء.

والفارق الكبير بين كلام الله في الإعلان العام وكلامه في الإعلان الخاص، هو أن الله في النوع الأول يدع الإنسان يكتشف الفكر الإلهي في أعمال الله، أما في الثاني فيعبّر الله بنفسه عن تلك الأفكار ويقدِّمها للعقل البشري في هذه الصـــورة. ونقرأ في (إش 28: 26) أن الله يرشد الحارث ويعلِّمه كيف يقوم بعمله. إلاّ أن هذا التعليم لا يصل للحارث مكتوباً، أو في شـــكل كلمـــات، أو دروس يتعلمهـــا في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المدرسة. ولكنّه تعليم موجود وتعبّر عنه كل قوانين الطبيعة - في خـــواص الهـــواء والتربة، والزمان والمكان، وأنواع الحبوب. ويجب على الحارث أن يعرف قـــوانين الطبيعة كلها، معرفة جيدة، وأن يتعلم الدروس التي يقدمها الله من خلالها. وفي هذا الجهد يجد نفسه معرضاً للخطأ والصواب، إلا أنه عندما يستوعب هذا التعلـــيم في النهاية، يجب عليه أن يشكر الله لأجله لأن منه كل الأشياء، وهو عظيم في مشورته وعظيم في أعماله.

وفي الإعلان العام يُعتبَر هذا التعليم الموضوعي كافياً لغرضه. وهدف الله منه هو أن يدفع الإنسان كي يبحث عنه، ليتلمسه ويجده (أع 17: 27)، وإن لم يجده فإنه يكون بلا عذر (رو 1: 20). إلاّ أن الله، في الإعلان الخاص، يشـــفق علـــى الإنسان الذي ضل و لم يستطع أن يجده. ففي الإعلان الخاص يبحث الله عن الإنسان وهو نفسه يخبر الإنسان عمّن هو الله وماذا يكون. فإنه لا يترك الإنسان يســـتنتج ويستنبط من مجموعةٍ من الحقائق من هو الله. ويستخدم الله الإعلان الخاص حقائق الطبيعة والتاريخ ليعلن نفسه في مختلف كمالاته. وهذه الحقائق، التي كثيراً ما تكون معجزات، ليست مجرد إضافة أو ملحق، ولكنها عنصر لا يمكن الاستغناء عنـــه في الإعلان. إلاّ أن هذه ليست حقائق مجردة يترك الله لنا أمر تفسيرها، بل إن كلمة الله تحيطها من كل جانب. فكلمة الله تسبقها وترافقها وتتبعها. والمضمون الجـــوهري للإعلان الخاص هو شخص المسيح وعمله. وقد تحدَّث عنه ووصفه العهد القديم قبل مجيئه بقرون طويلة. وعندما ظهر وأكمل عمله، تناولته كتابات العهد الجديد بالشرح

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والإيضاح. ولذلك، فإن الإعلان الخاص يسير في خط يقـــود إلى المســـيح. إلا أن الإعلان الخاص، في موازاة لهذا الخط وعلى ارتباطٍ به، يقود أيضـــاً إلى الكتـــاب المقدس، كلمة الله.

ولهذا فمع أن الإعلان العام يمكن أن يُعتبَر كلاماً، ينطبق هذا بصورة أدق على الإعلان الخاص. والآية الأولى في الرسالة إلى العبرانيين تتضمن كامل الإعلان الإلهي سواء كان في ما يتعلق بالعهد القديم أو العهد الجديد، ما يتعلق بالأنبياء وما يتعلق بالابن، كل هذا متضمن في هذا التعبير الواحد: الكلام، إلا أنه يضيف علـــى الفور أن هذا الإعلان جاء في أوقات مختلفة وبطرق وأنواع كثيرة. والتعـــبير الأول "قديماً" يعني أن الإعلان لم يأتِ كلاماً تاماً في لحظة واحدة، ولكنه جاء عن طريق أحداث متوالية عبر التاريخ الطويل. والتعبير الثاني: "بطرق وأنواع كثيرة" يعـــني أن الإعلانات الإلهية المختلفة لم تُعْطَ بالأسلوب نفسه، لأنّها إذ حـــدثت في أوقـــات وأماكن مختلفة، حدثت أيضاً بطرق متباينة وجاءت في صور مختلفة.

****

وفي أماكن كثيرة في الكتاب المقدس[1]، نقرأ ببساطة أن الرب ظهر، قـــال، أمر، وما شابه ذلك. ولا نجد أي تعليق عن الكيفية التي حدث بها هذا. إلاّ أن بعض

(1) على سبيل المثال تك 2: 16، 18، 4: 6؛ 6: 13؛ 12: 7؛ 13: 14.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

النصوص الأخرى تلقي بعض الضوء على كيفية الإعلان، وهذا يمكننا من أن نميِّز بين نوعين من الطرق التي استخدمها الله ليعلن ذاته.

يشمل النوع الأول جميع الطرق التي لها طبيعة خارجية موضوعية. وكأن الله يأتي إلى الإنسان عن طريقها من الخارج، فهو يظهر للإنسان ويكلمه. وبهذه الكيفية ظهر عدة مرات لإبراهيم، ولموسى، ولشعب إسرائيل على جبل سيناء، وفوق خيمة الاجتماع، وفي قدس الأقداس، وفي عمودي السحاب والنار كرمز لحضوره[1] وفي أوقات أخرى يعلن ما يريد أن يقول عن طريق ملائكة[2]، وبصفة خاصة عن طريق ملاك العهد الذي يحمل اسم الله في نفسه (خر 23: 21) ويستخدم أيضاً القرعة ليعلن نفسه لإسرائيل (أم 16: 33) أو الأوريم والتميم (خر 28: 30) ويتحدث في مرات قليلة بصوت مسموع[4]، أو يكتب بنفسه شريعته على لوحي الشهادة (خر 31: 18؛ 25: 16).

ويجب أن تدخل المعجزات أيضاً ضمن هذه المجموعة من وسائط الإعلان. تحتل المعجزات مكاناً كبيراً هامّاً في الكتاب المقدس. وتواجه المعجزات في عصرنا هجوماً عنيفاً من جميع النواحي. وإنّه لجهد ضائع لو حاولنا أن ندافع عن معجزات الكتاب المقدس ضد من يرفضون النظرة الكتابية إلى الحياة والعالم.

(2) تك 15: 17؛ خر 3: 2؛ 13: 21؛ 19: 9، 33: 9؛ لا 26: 2 وغيرها.
(3) تك 18: 2؛ 32: 1، دا 8: 13؛ زك 1: 9 والآيات التالية، مت 1: 20 وغيرها.
(4) خر 19: 9؛ تث 4: 33؛ 5: 26؛ مت 3: 17؛ 2 بط 1: 17.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فإن لم يكن الله موجوداً، وهذه هي وجهة نظر الملحدين والماديين، أو إن لم يكن له وجود حقيقي، شخصي، مستقل، ولكن هو والعالم وحدة واحدة، كما تقول نظرية وحدة الوجود pantheism، أو إن كان بعد الخليقة انسحب من العالم فتركه وشأنه، كما يقول الربوبيون أو مذهب التأليه الطبيعي*، فسيُضحي واضحاً أن المعجزات مستحيلة. وإن كانت استحالة المعجزات واضحة من البداية، فلا لزوم للجدل بشأن حقيقتها.

ولكن الكتاب المقدس يقدم فكرة مختلفة تماماً عن الله وعن العالم وعن العلاقة بينهما. فيعلّم الكتاب المقدس أولاً أن الله كائنٌ واعٍ، له إرادة، وكلي القدرة، وهو الذي خلق العالم كلّه بكل طاقاته ونواميسه، إلا أنه لم يستنفد مطلقاً كل قوته بذلك. فهو يملك في نفسه ما لا نهاية له من الحياة والقوة، ولا يعسر عليه أمر ما (تك 18: 14) وكل شيء ممكن له (مت 19: 26).

بالإضافة إلى ذلك، فإن النظرة الكتابية لا تعتبر العالم وحدة بكل أجزائها من الطبيعة نفسها والجوهر عينه. لا اختلاف بينها سوى في المظاهر والأشكال. بل بالأحرى تنظر إلى العالم ككيانٍ عضوي، تنتسب أعضاؤه إلى الكيان الكلي، ولجميعها صفات مختلفة ولها وظائف مختلفة. وفي العالم الواحد هنالك مجال لأنواع

(*) الربوبية أو مذهب التأليه الطبيعي Deism مذهب فكري ظهر في انجلترا بصفة خاصة في القرن الثامن عشر يدعو للإيمان بدين طبيعي مبني على العقل لأعلى الوحي، ينكر تدخل الخالق في نواميس الكون، لكنه ينبر على الأخلاق. (المترجم).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مختلفة من الكائنات، ومع أن نفس القوة الإلهية تحفظها وتضبطها جميعاً، فهي تختلف في طبيعتها بعضها عن بعض. وهذا العالم الغني يشمل المادة والروح، الجسد والنفس، الأرض والسماء، ويحوي العضوي وغير العضوي وما هو حي وغير حي، والخلائق العاقلة وغير العاقلة، والمعادن والنباتات والحيوانات، والكائنات البشرية والملائكة. وداخل الكيان البشري هنالك أيضاً اختلاف بين الرأس والقلب، العقل والضمير، الأفكار والعواطف. وجميع هذه المجالات في ذات العالم الواحد تعتمد على طاقات وإمكانيات مختلفة، وتعمل بمقتضى قوانين مختلفة. وكل الأشياء يعتمد بعضها على بعض، كأعضاء في الجسد، إلاّ أنّ لكل جزء مكانه ووظيفته داخل الإطار الكلي.

ويعلّم الكتاب المقدس، في المقام الثالث، أنه مع أن الله والعالم يختلفان إحداهما عن الآخر فهما لا ينفصلان أبداً. ولله كيان فريد كامل مستقل في ذاته، إلا أنه ليس في معزل عن العالم، بل على نقيض ذلك فإننا به نحيا ونتحرك ونوجد (أع 17: 28). فهو طبعاً الخالق الذي أوجد كل الأشياء في البداية، إلا أنه يظل أيضاً المالك، بل الملك السيد الذي يحفظ ويضبط كل الأشياء بقدرته على كل شيء وبحضوره في كل مكان. فهو العلة الأولى لجميع الأشياء، لا في بداية وجودها فقط، ولكن بصفة مستمرة في ما بعد ذلك. والأسباب الثانوية التي يعمل من خلالها يختلف بعضها عن بعض، إلا أن العلة الأولى لكل الخلائق هي الله وحده. ويظل هو كذلك أبداً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فإن كنّا نتفق مع الكتاب المقدس في هذه الأفكار الأساسية ونتخذ موقفنا على أساس راسخ من الإيمان بوجود الله الواحد، فلا يكون هنالك أي أساس لإلقاء ظلال من الشك على إمكانية المعجزات ولا لمهاجمة هذه الإمكانية. بل على هـذا الأساس كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة أو التاريخ هي عمل من أعمال الله، وبهـذا المعنى فهي معجزة. فما نسميه معجزات ليست سوى إظهار خاص لهذه القوة الإلهية نفسها التي تعمل في كل الأشياء. وتعمل هذه القوة بطرق مختلفة، وتستخدم وسائل مختلفة (أسباب ثانوية)، بمقتضى نواميس مختلفة، ومن ثمّ تكون النتائج مختلفة. وقـد قيل- وهو قول في محله- إنّ الحجر يدهشه أن النبات يستطيع أن ينمو، وإن النبات يدهشه أن الحيوان يتحرك، وإن الحيوان يدهشه أن الإنسان يفكر، وإن الإنسـان يدهشه أن الله يستطيع أن يقيم الموتى. فإن كان الله بحضوره في كل مكان وبقوته على كل شيء، يعمل من خلال الخلائق كلها باعتبارها وسائله، فلماذا لا يقدر أن يعمل بتلك القوة نفسها بكيفية مختلفة، أي كيفية تختلف عن تلك المألوفة عندنا في المسرى العادي للطبيعة والتاريخ. فالمعجزات ليست انتهاكاً للقوانين الطبيعية، حيث إن الكتاب المقدس يعترف بها تماماً، وإن لم يصنِّفها ويَصُغها. ولذلك يقول الكتاب المقدس، مثلاً، إنّ عهد الطبيعة الذي صنعه الله مع نوح قد ثبت تماماً نواميس الطبيعة كلِّها. (تك 8: 22)، إذ أنه، كما أن الإنسان يُخضِع الأرض بأسرها بعقله وإرادته، ويحكم الطبيعة ويضبطها عن طريق حضارته، كذلك يستطيع الله أن يسخِّر العـالم الذي خلقه لتنفيذ مشورته. وما تثبته المعجزات هو أن الرب وليس العالم هو الله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

****

وما كان هذا كله يحتاج إلى برهان أو جدل لو لم يسقط الإنسان. ففي مثل هذا الحال كان الإنسان يعرف الله ويعترف به من خلال أعمال يديه. ودون دخول في التساؤل هل كانت المعجزات ستحدث لو لم تكن هنالك خطية، يكفينا أن نقول هنا إنه لو حدثت معجزات في ذلك الحال لكانت ذات طبيعة أخرى وبهدف مختلف. لأن

للمعجزات التي حدثت فعلاً والتي دونّها الكتاب المقدس طابعها الخاص وهدفَها المعين.

في العهد القديم نرى الدينونة والفداء يسيران جنباً إلى جنب ويلازمان المعجزات. فالطوفان وسيلة لإبادة الجيل الشرير في ذلك العصر، وفي الوقت نفسه هو وسيلة لحفظ نوح وعائلته في الفلك. والمعجزات التي تتصل بموسى ويشوع: ضربات مصر، عبور البحر الأحمر، إعطاء الشريعة في سيناء، دخول كنعان وامتلاكها، إنما غايتها دينونة أعداء الله وأعداء شعبه وإقامة مسكن أمين لشعبه في أرض الموعد. والمعجزات التي تلت ذلك والتي يبرز فيها إيليا بوضوح حدثت في أيام أخآب وإيزابل، في الوقت الذي فيه كادت الوثنية أن تقضي على عبادة يهوه تماماً، وتبلغ الذروة فوق جبل الكرمل حيث تحسم المعركة بين يهوه والبعل.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وجميع معجزات العهد القديم لها العلاقة المميزة نفسها: فهي سلبياً تنطق بالدينونة على الأمم الشريرة، وإيجابياً توجد وتُبقي مكاناً بين شعب إسرائيل لإعلان الله المستمر. وبهذا تحقق غرضها، ففي مواجهة الوثنية وعبادة الصور يُعرَف إله العهد، إله شعب إسرائيل، إنه الله ويعترف به. انظروا الآن إني أنا، أنا هو وليس إله معي، أنا أميت وأحيي، سحقت وأنا أشفي، وليس من يدي مخلص (تث 32: 9، 4: 35، إش 45: 5، 18: 22) وعندما يتحقق هذا الغرض يتبعه بسرعة الإعلان الكامل في شخص المسيح.

وشخص المسيح في ذاته معجزة، في أصله، في جوهره، في كلماته وأعماله. إنه معجزة تاريخ العالم بأسره. ولذلك فالمعجزات التي يجريها لها صفتها الخاصة. فنلاحظ أولاً أنه أثناء حياته على الأرض صنع كثيراً من المعجزات، منها ما أظهر به سلطانه على الطبيعة، كأن حوَّل الماء خمراً، وأشبع الجموع، وأخضع العاصفة ومشى على الماء وما أشبه، ومنها ما أظهر به سلطانه على عواقب الخطية نفسها، أي على جرمها ودنسها وسلطان إبليس، كغفران الخطايا، وطرد الشياطين والأرواح النجسة. وتفرد شخصية المسيح يتمثل في هذه الأنواع الثلاثة من المعجزات. وكل معجزات المسيح لها صفة الفداء. ما عدا لعنة شجرة التين. فلم يأت العالم ليدينه بل ليخلِّص (يو 3: 17)، وفي معجزاته أيضاً يمارس عمل النبي والكاهن والملك، وفيها أيضاً يعمل العمل الذي كلفه الله (يو 4: 34، 5: 36، 9: 4).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بل إن شخص المسيح يظهر بأكثر وضوح في المعجزات التي أجريت لا به بل فيه ومعه. ففي هذه بصفة خاصة نرى من هو وما يتعلق به. فمولده الخارق، وحياته وموته المعجزيان، وقيامته، وصعوده وجلوسه عن يمين الله، كلها معجزات مدهشة لها صفة الفداء. بل إنها تثبت، بصورة أفضل، الأعمال، التي أنجزها، وسلطانه المطلق على الخطية وكل نتائجها، وعلى الشيطان وكل سلطانه. وتوضح هذه المعجزات، أكثر من غيرها من الأعمال، أن قوة المسيح لها طابع الفداء، والتجديد، وهي التي لن تحرز النصر النهائي، إلاّ في السماء الجديدة والأرض الجديدة.

والمعجزات التي تمت في العصر الرسولي عن طريق الشهود الأوائل يمكن أن نصفها بأنها أعمال المسيح الممجَّد (أع 3: 6، 4: 10). وقد كانت هذه المعجزات ضرورية لكي تظهر أن يسوع الذي رفضه العالم، والذي سمِّر إلى الصليب، وقتل، واعتبروا أنه قد مات، يسوع هذا ما زال حيّاً وله كل القوة في السماء، وكذلك على الأرض. إن معجزات العهد القديم أظهرت أن يهوه هو الله ولا إله غيره. ومعجزات العهد الجديد تظهر أن يسوع المسيح، الناصري، الذي صلبه اليهود، قد أقامه الله وأجلسه عن يمينه رباً ومخلصاً، (أع 4: 10، 5: 30 – 31). وعندما تحقّق هذا الهدف، وعندما تأسست الكنيسة في الأرض، كنيسة تؤمن وتعترف بإعلان الآب هذا في الابن بواسطة الروح القدس، عندئذ توقّفت المعجزات المرئية الخارجية، إلا أن المعجزات الروحية، معجزات التجديد والتغيير، استمرت في الكنيسة إلى أن يدخل ملؤ الأمم ويخلص كل إسرائيل. وفي نهاية الأزمنة، حسب الكتب المقدسة، ستتم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المعجزات الأخرى المتعلقة بظهور المسيح وقيامة الموات، والدينونة، والسماء الجديدة والأرض الجديدة.

إن غاية الإعلان وغرضه، والهدف من المعجزات التي ينطوي عليها هـذا الإعلان، هي استعادة الإنسانية الساقطة وإصلاحها، وخلقُ العالم من جديد، والإقرار بأن الله هو الله. ولذلك فالمعجزات ليست عنصراً غريباً فريداً في الإعلان، ولا هي إضافة عشوائية إليه، بل هي، على العكس عنصر ضروري لا غنى عنه. فهي نفسها إعلان من الله. فالله يعرّف البشر بذاته، في كل فضائله وكمالاته، بالكلام والأفعال.

****

ولا بد من إضافة نوعٍ ثان إلى هذه المجموعة الأولى من الوسائل الخارجية الموضوعية. ويشتمل النوع الثاني على كل تلك الوسائل الذاتية التي تحدث داخل الإنسان، والتي بها يتحدث الله إلى الإنسان لا من الخارج بل من الداخل.

والمكان الأول في هذا النوع يحتله ذلك الإعلان الفريد الذي جاء إلى موسى باعتباره وسيط العهد القديم. ويوصف هذا بأنه إعلان تحدث الله فيه إلى موسى وجهاً لوجه كما يكلم الإنسان صديقه (خر 33: 11).

والدور الذي قام به موسى في العهد القديم دور خاص فهو يسمو على سائر الأنبياء، إذ خاطبه الله، لا عن طريق الرؤى بل بحديث مباشر. وقد رأى موسى الله،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ليس كأنه في حلم، بل بكيفية مباشرة، إذ رأى شبهه أو هيئته، لا كيانه، ولا وجهه، بل آثار بهائه بعد ما عبر مجد الله نفسه (عدد 12: 8، خر 33: 18- 23).

وأيضاً تنتمي الأحلام إلى هذا النوع من الإعلان (عد 12: 6، تث 13: 1 - 6) وكذلك الرؤى، وهي الحال الذي تكون فيه العين الطبيعية مغمضة عن العالم الخارجي فيما تنفتح عين النفس على الأمور الإلهية (عد 12: 6، تث 13: 1 - 6)، ثم بصفة خاصة الهام روح الله للعقل البشري (عد 11: 25 - 29، 2 صم 23: 2، مت 16: 17، أع 8: 29، 1 كو 2: 12، 2 بط 1: 21). وهذه الوسيلة الأخيرة من الإعلان كثيراً ما حدثت في العهد القديم أيضاً، إلا أنه يعبر عنها في العهد القديم كعمل الروح الذي يحل على النبي من العلاء ولفترة وجيزة. أما في العهد الجديد، بعد انسكاب الروح القدس، فلا يصبح الإلهام أكثر عمومية كوسيلة للإعلان فقط. بل يتخذ صفة أكثر عضويّةً واتساماً بالاستمرار.

وهذان النوعان من طرق الإعلان يمكن أن نصنفهما تحت الاسمين: الظهورات والوحي. إلا أننا إذ نفعل هذا يجب أن نتذكّر أن الظهورات لا تتكون من مجرد أعمال وحسب، بل تتضمن الأفكار والكلمات أيضاً. كما يجب أن نتذكّر أيضاً أن الإلهام الذي نقصده هنا يختلف عن نشاط الروح الذي اختبره الأنبياء والرسل في تدوين الإعلان كتابة (وحي الكتاب المقدس) كما يختلف عن الاستنارة الداخلية التي هي نصيب جميع المؤمنين.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل السادس

مضمون الإعلان الخاص

لاحظنا من قبل الطرق المتعددة التي جاء بها الإعلان الخاص للبشر، ونتقدم الآن إلى دراسة مضمون هذا الإعلان. وكما فعلنا في دراسة الإعلان العام، كذلك يجدر بنا الآن أن نراجع باختصار تاريخ الإعلان الخاص. وبهذه الكيفية – ودون دراسة منفصلة – سيتضح غرض هذا الإعلان.

لم يبدأ الإعلان الخاص بإبراهيم، بل بدأ بعد السقوط مباشرة. ومن ثمّ فإنه من المهم أن نلاحظ أن إبراهيم كان ابن تارح الذي ينتسب إلى الجيل الثامن من نسل سام. ونقرأ عن سام أن يهوه كان إلهه وسيظل كذلك (تك 9: 26). ولقد حُفظت معرفة الرب لأطول مدة وعلى أنقى حال في نسل سام، كما كان الحال مع نسل شيث قبل الطوفان. ولذلك، فعندما يدعو الرب إبراهيم، فهو لا يقدم نفسه له كإله مختلف، بل باعتباره الإله نفسه الذي سبق أن عرفه واعترف به. وعلى أي حال فإننا نعرف من بعض الفصول الكتابية الأخرى، مثل الفصل الذي يحدّثنا عن ملكي صادق (تك 14: 18 – 20) أن معرفة الإله الحقيقي لم تكن قد ضاعت وبالإضافة إلى ذلك فإن الكتاب يحدّثنا عن أن ملك الفلسطينيين أبيمالك، وبني حث في حبرون، وفرعون مصر، كل هؤلاء اعترفوا بإله إبراهيم وأكرموه (تك 20: 3، 21: 22، 23: 6، 26: 29، 40: 8، 41: 16، 38، 39).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وبعد بلبلة الألسنة، وانقسام البشرية، لم ينتشر عدم الإيمان بسرعة بين البشر، إلا أن الخزعبلات والوثنية انتشرتا. هكذا كان الحال في مصر (خر 18: 9 - 12) وفي كنعان (تك 15: 16، 18: 1 والآيات التالية) وفي بابل. حتى بين نسل سام تراجع الدين الصحيح أمام تقدم الوثنية. ومن (يشوع 24: 2، 14 و 15) نعلم أن آباء إسرائيل، تارح أبا إبراهيم، وناحور وهاران عبدوا آلهة أخرى عندما عاشوا على الجانب الآخر من النهر. كما أن (تك 31: 9، 34 و 35: 2 - 4) يحدثنا عن أن لابان كانت له آلهة بيته الخاصة التي كان يعبدها ولذلك دعي لابان أراميّاً، سريانيّاً (تك 31: 20، تث 26: 5).

ولكي يمنع الله البشر من السقوط فريسة للخرافات والإثم، ولكي يحفظ عهد الطبيعة مع نوح من أن ينقض، وقصدَ الله للإنسانية من أن يخيب، اعتمد تعالى أسلوباً آخر في تصرُّفه مع إبراهيم. فهو لا يستطيع أن يبيد الجنس البشري مرةً أخرى بطوفان عام. لذلك ترك سائر البشر يسلكون في طرقهم الخاصة، وأقام عهداً مع شخص واحد، وعن طريق هذا العهد يتابع وعده ويحقّقه. وعندما يتم تحقيق هذا الوعد، يمكنه أن يشمل البشرية كلّها مرة ثانية ببركاته. فتمييز شعبٍ تمييزاً مؤقتاً يصبح وسيلة لتوحيد دائم يضم البشرية جمعاء.

وبذلك تبدأ في إبراهيم حقبة جديدة من تاريخ الإعلان الإلهي. وهذا الجزء من هذا الإعلان الذي أصبح من نصيب آباء العهد القديم، هو في الواقع موائم لما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

جاء من قبله، ويضم إلى نفسه الإعلان السابق ويحتويه، لكنه ينال الآن دفعة جديدة وتطوراً أكبر. ولذلك فمن الأهمية بمكان أن نتفهم هذا الإعلان الجديد بصفته المتميِّزة الخاصة. وتبرز هذه الأهمية بصورة أكبر لأن الإعلان لإبراهيم وبالتالي ديانة إبراهيم يحدّدان بصورة نهائية ما وصل إلى إسرائيل، وما يكون لذلك جوهر ديانة إسرائيل.

وكثيرون اليوم سدّوا الطريق أمام الفهم الصحيح لجوهر ديانة إسرائيل. فهم يرفضون أولاً أن يسندوا أية قيمة تاريخية إلى فترة آباء العهد القديم، فيعتبرون إبراهيم وإسحق ويعقوب وغيرهم كأنهم أنصاف آلهة أو أبطال مثلما نجد مثلاً في إلياذة هوميروس. كما أنهم ثانياً يعتبرون أن ديانة إسرائيل إنما هي ذات أصل وضيع هو صورة من صور الوثنية مثل الأرواحية (الاعتقاد بأن روحاً موجود في كل شيء مادي) والفتشية (وهي تقديس بعض الأشياء المادية) وعبادة الأسلاف، وعبادة الشياطين المختلفة أو الآلهة المختلفة. ثم إنهم يحاولون من الناحية الثالثة أن يبرزوا أن جوهر ديانة إسرائيل كما أصبحت فيما بعد في أيام الأنبياء، وبصفة خاصة في القرن الثامن قبل الميلاد،إنما كان مجموعة من المبادئ الأخلاقية ترتبط بالإيمان بوحدانية الله، أي الاعتراف بإله واحد قادر على كل شيء في الوقت نفسه صالح وعادل.

والفكر الحديث في دراسات العهد القديم هو محاولة لشرح كامل ديانة إسرائيل وديانات الشعوب الأخرى على أساس طبيعي بحت، كتطور بطيء تدريجي يحدث دون الاستفادة من إعلان خاص. إلا أن الكتاب المقدس بكامله يعارض هذه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

النظرة، وتحصد هذه المحاولات ثمرة ما غرسته. ولذلك فإن مجهوداتها لبلوغ الفهم الصحيح سواء لأصل ديانة إسرائيل أو طبيعتها تبوء بالفشل.

فليس هذا هو السبيل لاكتشاف أصل ديانة إسرائيل وليس صحيحاً أن كل نبي من أنبياء العهد القديم يأتي بإله جديد مختلف. فجميع الأنبياء يقدمون دائماً الإله نفسه الذي هو إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، إله آبائهم، إله إسرائيل، والذي يجب على الشعب بمقتضى العهد، أن يخدموه ويعبدوه. وكثيرون ممّن يدركون أهمية هذا الرأي يتحوّلون من الأنبياء إلى موسى، فيعتبرونه المؤسس الحقيقي لديانة إسرائيل. إلا أن موسى أيضاً لم يأت، وما كان له أن يأتي، باسم إله غريب غير معروف- وإلا فما كان الشعب ليتجاوب مع رسالته. وبدلاً من ذلك نراه متوائماً مع الشعب ومع تاريخه، ويدعوهم إلى الخروج من مصر باسم الإله الأمين لمواعيده وبأمره، ذلك الإله الذي عاهد الآباء وقد جاء الآن ليحقّق وعده. والتأمُّل الجادُّ في أصل ديانة إسرائيل يدفعنا في الواقع لأن نتمشى مع الكتاب المقدس في ما يتعلق بعصر الآباء.

فيجب أن نعود إلى هذه الحقبة إن كنا نريد أن نتفهم جوهر ديانة إسرائيل وطبيعتها. ومن المؤكّد أنّنا لا نجد هذا الجوهر في ما يسمونه المبادئ الأخلاقية المرتبطة بالإيمان بوحدانية الله. فلا شك أن ديانة إسرائيل تضمَّنت هذا العنصر. إذ نادت بأن الله واحد، وقادر على كل شيء، وبار وقدوس، إلا أن هذا العنصر ليس هو الصفة النهائية القاطعة لديانة إسرائيل. لقد كان هذا الأمر مسلّماً به، ولكنه لم يكن هو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مضمون ديانة إسرائيل. فقد كان لبَّ هذا الدين وجوهرَه شيء آخر، وهو أن هذا الإله هو الواحد السرمدي البار والقدوس وقد ارتبط بعهد ليكون إله إسرائيل.

****

هذه هي الكيفية التي بها فهم بولس هذا الأمر. ففي الفصل الرابع من رسالة رومية، والذي يجب مقارنته مع (غلا 3: 5 والآيات التالية)، يسأل بولس الرسول عن الشيء المميَّز الذي ناله إبراهيم من الله. ويجاوب عن هذا السؤال بالعودة إلى (تك 15: 6) فيقول إنّ هذا الشيء المميز لا يدخل نطاق الأعمال بل هو بر الإيمان، أي في نعمة مغفرة الخطايا، في إحسان الله الذي لا يتأسس على الاستحقاق، أو كما رأى داود في ما بعد، أن مغفرة الخطايا تشكل حال الهناءة والغبطة الذي يصل إليه الخاطئ.

وبالإضافة إلى ذلك يدافع الرسول بولس عن الفكرة فيقول إن عطية النعمة العظيمة هذه لم تُعط لإبراهيم عندما اختتن بل قبل ذلك بكثير (تك 15: 6) وإن ممارسة الختان التي بدأت بعد ذلك بأربع عشرة سنة (تك 17) افترضت بر الإيمان واعتبرت الختان رمزاً وختماً لذلك. ويترتب على هذا أن غفران الخطايا، بل الخلاص بكامله، مستقل عن الناموس ومتطلباته. هذا الأمر بالذات لا تنقصه الصحة في ما يتعلق بالمجال الشمولي لهذا الإحسان: فقد جاء الوعد لإبراهيم مؤكداً أنه سيكون أباً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لأمم كثيرة ووارثاً للعالم لا عن طريق الناموس، بل قبل الناموس بزمن طويـــل وفي استقلال تام عنه.

ويعتمد بولس الرسول في مناقشته كلّها على تاريخ العهد القديم نفســـه. والأمر الذي يبرز في هذا التاريخ ليس هو ما يعرفه إبراهيم عن الله أو يفعله من نحو الله، بل هو ما يعطيه الله لإبراهيم. فنرى أولاً أن الله هو الذي يبحث عن إبراهيم، ويدعوه، ويقوده إلى كنعان. ثم ثانياً هو الذي يعده بأن يكون إلهه وإله نسله. وثالثاً، يعد الله إبراهيم، على نقيض التوقعات كافة، أنه سيكون له نسل، وأنه سيكون أباً لأمة عظيمة، وأن تلك الأمة سترث كنعان. ورابعاً، يقول الله إن إبراهيم، من خلال نسله، سيكون بركة لأمم الأرض كلّها. وخامساً، يصوغ الله هذا الوعد عن طريق ضمان العهد ويختمه بعلامة الختان، وبعد ما اجتاز إبراهيم امتحان الإيمان يؤكد الله هذا الوعد بقسم (تك 12: 1- 3، 7، 13: 14- 17، 15: 1 والآيات التالية، 17- 21، 17: 1 والآيات التالية، 18: 10؛22: 17- 19).

هذه المواعيد كلّها مجتمعةً معاً تشكّل مضمون الإعلان الإلهي لإبـــراهيم، ومركزها وجوهرها جميعاً. ذلك الوعد الواحد العظيم: أكون إلهك وإله نســـلك. وتمتد هذه المواعيد من خلال الشعب وارض إسرائيل إلى المسيح، ومن المســـيح إلى البشرية كلها ثم العالم أجمع (رو 4: 11 والآيات التالية). فجوهر الإعلان لـــيس الناموس، بل الإنجيل، ليس ما يتطلبه الله منا، بل الوعد الإلهي الكريم. أما من الناحية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

البشرية، فالإيمان والسلوك، أو السير بالإيمان، هو ما يتصل بهذا الأمر (رو 4: 16 - 22، عب 11: 8 - 21). فنحن لا نمتلك الوعد بغير الإيمان، ويعبّر الإيمان عن نفسه بالسلوك الصالح (تك 17: 1). وإبراهيم هو مثال للإيمان الذي يصدّق. وإسحق مثال لإيمان الحليم، ويعقوب مثال للإيمان المجاهد.

في تاريخ هؤلاء الآباء نجد وصفاً لطبيعة شعب إسرائيل ودعوته. فبينما تسير شعوب الأرض في طرقها الخاصة وهي تطور ما أعطي لها عن طريق الإعلان العام، إذا بالله يدعو بعمل خلاّق شعباً للوجود من إبراهيم (تك 18: 10، تث 32: 6، إش 51: 1، 2). ولا بد لهذا الشعب من أن يعيش بالإيمان مثل إبراهيم، وأن يعترف بأنه مدين بأرض ميراثه لا لقوته الشخصية بل لنعمة الله، وأنّه لن يحقق الهيمنة المباركة على الشعوب المجاورة إلاّ متى تذكّر كإسحق وعد خلاص الرب، ومتى جاهد كيعقوب في تمسكه بإتمام هذا الوعد. فلا الحسابات ولا المشاورات البشرية يمكن أن تعمل على تحقيق ذلك، كما أن الضعفات البشرية والخطية لا يمكن أن تمنعه. فالله هو الذي يعطي الوعد وهو الذي يحققه. حتى إنه بينما يعاقب الخطية يجعلها تخدم تحقيق هدفه. وشعب إسرائيل، شأنه شأن يعقوب لا يكون له نصيب في وعد الرب وبركته إلا متى تصفى بالنار، وكُسِرت قوَّه، فيبلغ النصر عن طريق صراع الإيمان والصلاة ليس عن طريق سواه: لا أطلقك إن لم تباركني (تك 32: 26، هو 12: 4).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

****

ويظل هذا الوعد عينه مضمون جميع إعلانات الله التالية في العهد القـــديم. وطبيعي أنه يتسع وينمو، كما يستمر هذا الوعد أيضاً لب ديانة إسرائيل وجوهرها. صحيح أن إتمام العهد في سيناء والتدبير الناموسي الذي أسسه الله حينذاك آذنا ببداية حقبة جديدة، إلا أننا لكي نتفهم طبيعة ديانة إسرائيل وتدبير العهد القديم، ينبغي أن نقتنع اقتناعاً عميقاً بأن الوعد الذي أعطي لإبراهيم من قبل لم ينسخه تدبير الناموس الذي تلاه.

وهذا هو التعليم الذي نادى به بولس الرسول بوضوح كامل. ففي (غلاطية 3: 15 والآيات التالية)، يشبّه بولس الرسول الوعد لإبراهيم ولنسله باتفـــاق، أو بالأحرى بعهد، متى تثبَّت لا يمكن لأحد أن ينقضه. وهذا عينه ينطبق على وعد الله لإبراهيم مع كل ما يتضمنه من مزايا. فالمواعيد تدبير إلهي مجاني، وكأنها – إن جاز لنا القول – متضمّنة في صك وقعَه الله لإبراهيم ولنسله، ولذلك ينبغي أن توضـــع بتوجيه الله بين يدي هذا النسل. ولا تحسب الشعوب التي جاءت من إبراهيم حسب الجسد ضمن نسله المميز. فنسله من هاجر وقطورة (تك 17: 20، 25: 2) ليس من ضمن هؤلاء. لأن الكتاب لا يتحدث عن الأنسال، أي عن أجيال أو شـــعوب كثيرة، بل إنما عن نسل، عن جيل، وهو الذي يأتي من يعقوب. هذا هو النســـل،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الجيل، الشعب الذي يولد من ابن الموعد، من اسحق والذي ينتهي في المسيح بوصفه النسل الذي يفوق الأنسال كافة.

وعندما "ورَث" الله خاصياته الخلاصية لإبراهيم ونسله في وعده عن طريق العهد، فإن ذلك إنما كان يعني ضمناً أن هذه الخاصيات ستؤول يوماً للمسيح فتكون ملكه وتخصه وهو يعطيها للكنيسة التي جمعها من العالم كله. ويترتب على ذلك، أن هذا الوعد الذي أُعطِي لإبراهيم عن طريق عهد، أي لا تعتمد على أي شرط بشري، وإنما على التدبير الإلهي الذي يسود على الجميع، لا يمكن أن ينقضه ناموس إضافي متأخر. فلو حدث هذا، لكان الله قد ألغى وعده، ما صنعه بنفسه، عهده هو وقسمه.

وهنالك على أي حال إمكانيتان: فإما أن نقبل الفوائد المتضمنة في الوعد عن طريق الوعد نفسه وإما نقبلها عن طريق الناموس - بالنعمة أو بالاستحقاق، بالإيمان أو بالأعمال. ومن المؤكد أن إبراهيم نال بر الإيمان عن طريق الوعد حتى قبل أن يُرسَم الختان، وأن بني إسرائيل في أيام الآباء وفي مصر نالوا لمئات السنين الفوائد نفسها على أساس الوعد فقط، لأن الناموس لم يكن قد أعطي بعد، وأن الله أعطى الوعد لإبراهيم ولنسله حتى المسيح وشاملاً للمسيح الذي فيه أصبح الوعد لكل البشرية، ولذلك أعطى الله هذا الوعد كعهد أبدي تثبت بقسم ثمين (غلا 3: 17،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عب 6: 13 والآيات التالية). فإن صح هذا كله، يكون من المستحيل أن الناموس الذي أعطاه الله لإسرائيل في وقت متأخر كان يمكن أن يبطل وعد الله.

****

ما دام الأمر كذلك، يصبح من الأهمية بمكان أن نتساءل: فلماذا إذاً أعطى الله الناموس لإسرائيل؟ أو بصيغة أخرى: أيَ معنى وأهمية لتدبير عهد النعمة الـــذي ابتدأ بالناموس، وما طبيعة ديانة إسرائيل وجوهرها؟ كان هذا السؤال سؤالاً هاماً في أيام بولس الرسول، وهو لا يقل أهمية اليوم.

كان بعضهم في أيام الرسل يبحثون عن جوهر ديانة إسرائيل في الناموس، ولذلك اشترطوا أن الأمم يُقبلون إلى المسيحية عن طريق الانضمام إلى إسرائيل أي عن طريق الختان وحفظ الناموس.

وكان هنالك أيضاً من احتقروا الناموس ونسبوه إلى إله أدنى، واعتبروه يمثل وضعاً دينيّاً منخفضاً. فالتمسك بالناموس والرفض المتشدد له كانا موجودين في ذلك الوقت وهما يمثلان طرفي نقيض.

وما زالت نفس المواقف قائمة اليوم، وإن كانت الأسماء والصور مختلفـــة. فيرى بعضهم جوهر ديانة إسرائيل في مبادئ أخلاقية مؤسسة على وجود حقيقـــة واحدة من وراء الكون، أي في الاعتراف بأن الله إله قدوس ولا يطلب منا سوى أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

نحفظ وصاياه. وهؤلاء يجدون جوهر المسيحية في الشيء نفسه، وبذلك يضيع الفارق بين الاثنين، فاليهودي المستنير والمسيحي المستنير في نظرهم يقرّان بذات الديانة تماماً. إلا أن هنالك من الناحية الأخرى من يتطلعون من قمم الحرية الروحية إلى أسفل فيرون هذه أفكاراً وضيعة فكرها ضيق ويهوديتها متزمتة متمسكة بالناموس، فلا يفكرون في مبادئ أسمى من تحرير البشرية من أيدي اليهود، إذ يعتبرون اليهودية أساس كل شر، ويبحثون عن الخير كله في الجنس الهندي الأوروبي. وبذلك يظهر لنا أن الروح السامية وروح عداء السامية تقاوم إحداهما الأخرى، إلا أنهما وإن كانتا على طرفي نقيض، فإنهما كثيراً ما وقعتا في الخطأ الواحد بعينه.

وكانت مشكلة معنى الناموس وهدفه بالنسبة إلى بولس الرسول على جانب كبير من الأهمية لدرجة أنه عاود معالجتها مراراً وتكراراً. وكان حلّه للمشكلة بالصورة التالية:

أولاً– أن الناموس شيء مضاف إلى الوعد، شيء جاء به في وقت لاحق ولم يكن مرتبطاً به في الأصل، إذ لم يعلن الناموس إلا بعد مضي سنوات طويلة على الوعد. وعندما جاء الناموس، كانت له طبيعة مؤقتة وعابرة. ومع أن الوعد – أو عهد النعمة – أبدي، فالناموس لم يدم إلاّ إلى الوقت الذي فيه يظهر نسل إبراهيم الحقيقي أي المسيح، الذي يتحقق فيه الوعد فعلاً فيتسلم مضمونه ويوزّع خيراته (رو 5: 20، غلا 3: 17 - 19).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ثانياً– أن أصل الناموس يعبُّر عن البداية عن طبيعته المؤقتة العابرة. فإن كان الله هو مصدر الناموس، إلا أن الله لم يعطه بطريقه مباشرة فوراً إلى الشعب، ولكل فرد في ذلك الشعب. فلقد كانت هنالك وسائل وساطة كثيرة ومتعددة. فمن جانب الله، أعطى الناموس عن طريق ملائكة في وسط رعود وبروق، وفي سحابة مظلمة وبصوت بوق شديد (خر 19: 16 - 18، عب 12: 18، أع 7: 38، 53، غلا 3: 19). ومن جانب الشعب الذي امتلأ خوفاً والذي كان عليه أن يظل واقفاً عند أسفل الجبل، دعا الله موسى ليصعد ويقوم بدور الوسيط، ليتكلم مع الله ويتلقى الناموس. (خر 19: 12 والآيات التالية، 20: 19، تث 5: 22 - 27، 11: 16، عب 12: 19، غلا 3: 19 و 20). وليس الأمر كذلك مع الوعد. فلم يُعطَ الوعد عن طريق ملائكة، بل إنما أعطانا إياه ابن الله نفسه. أما من جانبنا نحن، فإننا لا نخصص أحداً ليكون وسيطنا ليقبل الوعد بالنيابة عنا. إذ أن المؤمنين جميعاً يأتون شخصياً في المسيح ليشتركوا في هذا الوعد (يو 1: 17، غلا 3: 22، 26).

ثالثاً– بما أن الناموس يأتي من الله فإنه مقدس وصالح وروحي. فهو ليس سبب الخطية ولا هو الذي يتيح لها الفرصة، وإن كانت الخطية تتخذ منه فرصة لها. وفي الواقع أن الناموس في أنه ليس خلواً من الطاقة أو القوة، فهو للحياة. إنه بلا طاقة ولا قوة في الإنسان فقط، بسبب جسده الخاطئ. إلا أن هذا كلّه يدفعنا لأن ننكر أن الناموس يختلف عن الوعد لا في الدرجة فقط بل من حيث النوع أيضاً. أنه لا يتعارض مع الوعد، ولا يدخل في صراع معه، لكنه ليس من الوعد ولا من الإيمان.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولذلك لا يمكن أن يكون الناموس قد أعطى ليُلغي الوعد. والناموس يختلف عن الوعد في طبيعته كما يختلف عنه أيضاً في غرضه (رو 7: 7 - 14، 8: 3، غلا 3: 17، 21).

رابعاً– هذا الغرض الخاص الذي يتميز به الناموس، والذي لأجله أعطى الله الناموس، له صفة مزدوجة. فهو أولاً قد أضيف إلى الوعد بسبب التعديات (غلا 3: 18) أي لإظهار التعدي شديداً. لقد كانت الخطية موجودة قبل إعطاء الناموس (رو 5: 12، 13) إلا أن الخطية كانت شيئاً مختلفاً، فلم تكن تعدياً بالمعنى الذي يتحدث عنه بولس الرسول مميزاً إياه عن الخطية عامة. فكما أعطى الله آدم وصية يتوقف على حفظها أمر الحياة أو الموت (رو 5: 12 -14)، كان لإسرائيل أن يرث الحياة أو الموت عن طريق الطاعة أو العصيان، إلا أننا نجد أن الخطية لها صفة مختلفة في كل من الحالين.

فهذه الخطية، باعتبارها خطية ضد ناموس، يتوقف عليها أمر الحياة أو الموت أصبحت "تعدّياً". لقد أخذت صورة عهد قد نُقِض. إن معنى ذلك أن يضع المرء نفسه خارج - أو ضد - تلك العلاقة الخاصة التي أسسها الله في عهد الأعمال الذي قطعه الله مع آدم وفي عهد جبل سيناء مع إسرائيل. وحيثما لم يوجد ناموس، فالخطية تظل خطية، إلا أنه لا يوجد "تعد" بالمفهوم الدقيق للكلمة (رو 4: 15). لا شك أن خطايا الأمم خطايا، ولكنها ليست نقض عهد كما هو الحال مع إسرائيل، وإذ ليس

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للأمم ناموس مثل الذي أعطاه الله لإسرائيل، فإنهم يقعون تحت طائلة الدينونة بغير الناموس (رو 2: 12).

كما يمكن للخطايا أن تصبح أيضاً تعديات بالنسبة لإسرائيل وذلك بصفة خاصة لأن إسرائيل تسلم الناموس من الله متضمِّناً وعد الحياة ووعيد الموت. ويمكن القول إن الناموس هو الذي جعل هذا ممكناً. وإلى هذا الحد بالتالي يمكن للرسول بولس أن يقول إن ناموس سيناء مع أنه مقدس وليس سبب الخطية على الإطلاق، إلا أنه أضيف إلى الوعد لتزداد "التعدّيات". وأنه هو قوة الخطية، وموقظ الشهوة، وأن الخطية تتخذ فرصة بالوصية لتصبح تعدّياً، وأنه دون مثل هذا الناموس تكون الخطية نائمة ميتة، وأن الناموس يجعل الإثم يتزايد – والإثم هنا ليس بمعنى الخطية عامة ولكن بمعنى تلك الخطايا الخاصة التي هي زلة في طبيعتها، إنها نقض العهد (غلا 3: 19، رو 5: 13، 20، 7: 8، 1 كو 15: 56). ولكن بما أن الناموس يحمل هذا كله في أعقابه، فإنه بالضرورة يثير الغضب، أي أنه يتوعد العقاب الإلهي، ويدين جميع البشر وكل أفعالهم، فهو لا يبرر أحداً، بل يضع الجميع تحت اللعنة، ويُخضِع الجميع لغضب الله (رو 3: 19، 20، 4: 15، غلا 3: 10 -12) ولذلك فإن كان هنالك في العهد القديم من نالوا غفران الخطايا والحياة الأبدية، فإنهم مدينون بهذا لا للناموس ولكن للوعد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلا أنه في ما يتعلق بهذا الغرض السلبي، أي زيادة التعدي وإثارة الدينونة، فإن الناموس يتخذ أيضاً غرضاً إيجابياً. فإذ يضفي الناموس على الخطية طبيعة التعدي، ونقض العهد، وعدم الأمانة، وإذ يجعل الجميع يخطئون، ويجعل رغبات القلب السرية تظهر أنها خطية، أي تتعارض مع ناموس الله ولذلك تستحق غضبه ولعنة الموت (رو 3: 20، 7: 7، 1 كو 15: 56). إذ يفعل الناموس، على وجه التحديد، هذا كله، فإنّه يجعل الحاجة إلى الوعد تبدو واضحة، ويثبت أنه إن أمكن تبرير الخاطئ، فإنه يجب تدبير بر آخر غير ذلك المؤسس على الناموس وأعمال الناموس (غلا 3: 11). فالناموس بعيد البعد كله من أن يكون معارضاً للوعد. ولذلك فالناموس يصبح، على وجه أدق، أداة في يد الله ليجعل الوعد دائماً قريب التحقيق. فالناموس يضع إسرائيل تحت قيود مثل السجين الذي يكبل بالأغلال ويحرم حرية الحركة. وكمعلم ("مؤدب" غلا 3: 24)، أخذ الناموس بيد إسرائيل وسار به دائماً وفي كل مكان ولم يتركه لحظة بعيداً عن بصره. وكوصي وعاضد، راقب الناموس إسرائيل رقابة صارمة حتى يتعلم أن يعرف الوعد وأن يحبه في ضرورته وفي مجده. فبغير الناموس، إن جاز القول، يصير الوعد وإتمامه إلى لا شيء. وعندئذ كان إسرائيل سيرتد سريعاً إلى عبادة الأوثان، وكان سيفقد الإعلان الإلهي بوعده، كما يفقد ديانته ومركزه بين الأمم. إلا أن الناموس قد وضع حدوداً لإسرائيل، وميزه، وحفظه في عزلة، وحرسه من الاضمحلال، وهكذا وفر نطاقاً وحدد جواً فيهما يستطيع الله أن يحفظ وعده نقيّاً، وأن يتيح له مجالاً أوسع، وأن ينميه، ويزيده، ويقترب به دائماً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

من التحقيق. فالناموس كان في خدمة تحقيق الوعد. إذ وضع الجميع تحت غضب الله وتحت حكم الموت وشمل الجميع في دائرة الخطية، حتى إن الوعد الذي أعطى لإبراهيم وتحقق في المسيح يمكن أن يعطى لكل المؤمنين، حتى يبلغ هؤلاء أجمعون الميراث كأبناء (غلا 3: 21، 4: 7).

****

عندما نضع أنفسنا في موقع بولس الرسول المتميّز نرى بكيفية مستنيرة ممتعة إعلان الله في العهد القديم، وديانة إسرائيل، ومغزى الناموس والتاريخ والنبوءة والمزامير وأسفار الحكمة.

بمجيء موسى تبدأ حقاً فترة جديدة في إعلان الله وتاريخ إسرائيل. ولكننا نلاحظ أنه كما أن الإعلان الذي أعطى لإبراهيم لا يقطع الصلة مع إعلانات الله السابقة بل إنما يحتويها ويتابعها، فهكذا تدبير نعمة الله تحت الناموس، فيه استمرار لتدبير نعمة الله قبل الناموس. فالناموس الذي أضيف إلى الوعد لم يُلغِ فاعلية الوعد أو يبطله، بل بالأحرى ضم العهد إلى نفسه ليعمل على نموه وتحقيقه. فالوعد هو الشيء الأساسي، والناموس يحتل مكاناً ثانوياً. الأول هو الغاية، والثاني هو الوسيلة. فلب إعلان الله وقلب ديانة إسرائيل يكمنان في الوعد لا في الناموس. ولأن الوعد هو وعد الله فهو ليس صوتاً أجوف ولكنه كلمة مليئة بالقوة إنما هي تعبير عن إرادة تصر على

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فعل كل ما يسر قلب الله (مز 33: 9، غش 55: 11). ولذلك فإن هذا الوعد هو القوة الدافعة لتاريخ إسرائيل إلى أن يبلغ هدفه في المسيح.

وكما أننا نرى من (إش 29: 22) أن الله افتدى إبراهيم من أرض الكلدانيين بأن دعاه، وبعد ذلك نال وعد العهد بتدبير من الله مجاني، كذلك قاد الرب شعب إسرائيل أولاً إلى أرض مصر، ثم وضعهم تحت نير عبودية الفراعنة، حتى يفتديهم فيما بعد من هذا البؤس ثم يضمهم كشعب في عهده عند جبل سيناء. هذه الأحداث الثلاثة: العبودية في مصر، والتحرر من هذه العبودية بيد الله القوية وذراعه الممدودة، وإتمام العهد في سيناء، هي أساس تاريخ شعب إسرائيل والأعمدة التي تقوم عليها حياته الدينية والأخلاقية. إنها أحداث تحيا في الذاكرة من جيل إلى جيل، ويشار إليها باستمرار في الكتب التاريخية والمزامير والأنبياء، ولا يمكن لأكثر النقاد تطرفاً أن ينكر حقيقتها التاريخية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الحوادث ذات الدلالة تقدِّم البرهان على أن الناموس لم يعط، وما كان يمكن أن يعطى ليبطل العهد. فعلى نقيض ذلك، عندما يظهر الله لموسى في العلَيقة الملتهبة، ويدعوه إلى وظيفته، فإنه لا يظهر له كإله غريب غير معروف، بل باعتباره إله إبراهيم، وإله اسحق، وإله يعقوب، إلهاً رأى ذل شعبه، وسمع صراخهم، الإله الذي لكونه يهوه أي الأمين الوفي، ينزل الآن لينفذ وعده فينقذ شعبه من بؤس العبودية (خر 3: 6 والآيات التالية). وبذلك فإن إسرائيل لم يصبح

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

شعب الله أول مرة عند حوريب كما أنه لم يُقبَل كشعب الرب على أساس الناموس. إن إسرائيل هو شعب الرب من قبل ذلك وعلى أساس الوعد، ويتم فداء شعب إسرائيل آنذاك من بؤسه على أساس هذا الوعد نفسه. فالشقاء والفداء يسبقان إعطاء الشريعة في سيناء. وكما أن إبراهيم وقد افتُدي بدعوة الله له، وقبل وعد الله بإيمان كإيمان الأطفال، ملتزم أن يسلك سلوكاً مقدساً أمام وجه الله على أساس هذا الوعد، فكذلك إسرائيل أيضاً وقد تحرر من عبودية مصر بقدرة ذراع الله، يناشده الله ويقوده لطاعة جديدة في سيناء. إن الناموس الذي جاء الشعب عن طريق موسى كان ناموس اعتراف بالجميل. إذ جاء في أعقاب الفداء، وهو يفترض الوعد ويقوم عليه. وقد اقتاد الله بقوته شعبه إلى مسكن مجده الجميل (خر 15: 13) وحمل شعبه على أجنحة النسور وأتى بهم إلى نفسه (خر 19: 4، تث 32: 11، 12) لذلك يقدم الله الناموس بالكلمات الافتتاحية: أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية (خر 20: 2، تث 5: 6).

إلا أن علاقة العهد هذه تتطلب نظاماً للطاعة أكثر تحديداً، ففي حقبة الآباء عندما شاركت عائلات قليلة في بركات عهد الرب لإبراهيم، لم تكن هنالك حاجة إلى نظام أكثر تحديداً. وفي مصر عندما كان الشعب يئن في العبودية لم تكن هنالك فرصة لذلك. أما الآن فقد افتدى الله إسرائيل، وأصبح شعباً حراً مستقلاً يعيش في بلاده الخاصة. فإن كان لإسرائيل أن يظل أمة وشعباً لله في ظل هذه الظروف

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الجديدة، فإن عهد النعمة يجب أن يتخذ صورة عهد قومي، ولكي يستمر العهد ويطور نفسه، كان يجب أن يعتمد على معاونة الناموس.

وكان هذا أكثر ضرورة لأن إسرائيل - كما يصفه بولس الرسول - كان قاصراً. لقد مر بمرحلة دراسية صعبة بمصر، وإذ اجتاز اختبار العبودية، أصبح عند إحساس عميق بالاعتماد على الآخرين، ووعي عميق بالحاجة للمعونة والمساندة. إلا أن إسرائيل لم يكن مستعداً للاستقلال فوراً. وتطلب الأمر كل حكمة ووداعة من موسى (عدد 12: 3) لتوفير القيادة الضرورية لمثل هذا الشعب في الخروج من مصر وفي البرية. ومرة تلو الأخرى يقال عن هذا الشعب إنه صلب الرقبة لأنه لا ينحني لوصايا الله (خر 32: 9، 33: 3، 34: 9، تث 9: 6 وما أشبه). ففي البرية وفي كنعان في ما بعد، يظهر إسرائيل باستمرار طبيعة الطفولة فلم يكن هذا الشعب شعباً على جانب من الإدراك والتعقل، بل كان ينقصه إدراك الذات والروح الفاحصة والفكر الفلسفي وقوة الفكر المجرَد. ودفعه كل هذا بالتالي لأن يكون شعب مشاعر وعواطف.

وترتب على ذلك أن أصبح لدى إسرائيل، من الجانب الواحد، الاستعداد الكبير لقبول أنواع المؤثرات كافة، كما أصبح معرضاً لعالم المشاعر، وبذلك كان مؤهلاً جداً للتأثر بالقوى الأرضية والسماوية. ومن هذا المنطلق كان الله نفسه قد شكلهم ليستقبلوا ويحملوا إعلانه. ونقابل هذا الجانب من الشخصية الإسرائيلية في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الكتاب المقدس من خلال كل أناس الله الذين إذ يكرمهم الرب بدعوته لهم، لم تكن لهم سوى إجابة واحدة متواضعة كالأطفال: ها أنا! تكلم يا رب لأن عبدك سامع، أو أمتك تسمع، ليكن لي كقولك! إنهم يقبلون كلمة الرب ويحفظونها ويكنزونها في قلوبهم. إلا أن إسرائيل من الجانب الثاني، كما نقرأ عنه في (خر 32: 8)، كان عنده الاستعداد لأن ينحرف سريعاً عن الطريق كان ميالاً إلى الضلال، ينقصه الثبات، يخضع للنزوات والمزاج، متمرداً، ينحرف بسهولة وراء شخص أو حادث، جياش المشاعر، كراهيته شديدة ملتهبة، وحبه عميق رقيق أكثر من حب الأمهات، يحزن حتى الموت إلا أنه يقفز إلى العلاء فرحاً في اللحظة التالية. لا يملك الهدوء الغربي أبداً، ولكنه يتأجج دائماً بمشاعر الشرق، مولع بالتوابل في الأطعمة فيحب الثوم والبصل (عد 11: 5) والعدس (تك 25: 34) واللحوم اللذيذة المذاق والرائحة (تك 27: 14 والآيات التالية) وتفتنه الألوان الزاهية، والملابس الجميلة والعطور والأحجار الكريمة، (يش 7: 21، إش 3: 18 والآيات التالية) وكل ما يتلألأ ويسطع في ضوء الشمس. وكبار تجار الأحجار الكريمة اليوم من بني إسرائيل!

كان من الضروري أن يوضع مثل هذا الشعب تحت وصاية الناموس وتأديبه إن كان له أن يتمم دعوته عن طريق الوعد ليكون بركة لكل أجيال الأرض. وطبيعة الناموس تتناسب مع مثل هذه الحاجة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فنرى في المقام الأول أن الناموس لا ينبع من الوعد أو من الإيمان، ولكنـــه أضيف إلى الوعد، ويؤدي لا إلى نقض الوعد بل إلى تمهيد الطريق لإتمامه. وفي العصر الحديث يحاول كثيرون أن يعكسوا الأدوار بين الناموس والوعد: فيتحدثون لا عن الناموس والأنبياء، بل عن الأنبياء والناموس، وينادون بأن الناموس في كتب موسى لم يأت إلا بعد موسى بعدة قرون، بل إلى حد كبير بعد السبي أيضاً. وبحسب هـــذه النظرة فلعله من الطرافة أن نقول أن الناموس لم يكن في الواقع هو الشيء الرئيسي في إعلان الله وفي ديانة إسرائيل، فالوعد سبقه واحتل أسى مقام وكان الناموس وسيلته. كما يقولون أيضاً بأنه من الممكن جداً أن يكون بعض الأشخاص من جيل ثانٍ أو ثالث قد قاموا بمراجعة ناموس موسى وإعادة صياغته، وبهذه الكيفية أَثَروا الناموس باستيفاء بعض النقاط بإضافات مختلفة اقتضتها ظروف العصـــر. لأن النـــاموس في مجموعه ذو صفة مؤقتة زائلة. بل إنهم يعتبرون أن موسى عدَل بعض النقاط في سفر التثنية. إلا أننا نلاحظ رغم ذلك أن وجهة النظر القائلة بأن النبوة تسبق النـــاموس تسير في اتجاه مضاد للحقائق، ولطبيعة الناموس، ولطبيعة عمل النبوة، كما أنها أيضاً ضد التفكير السليم. ويقيناً أنه لا مجال للجدل بشأن حقيقة أن إسرائيل كـــان لـــه هيكله، وكهنته، وذبائحه وما أشبهن قبل القرن الثامن قبل الميلاد. فلهذا، ولأسباب اجتماعية وسياسية، كانت الشرائع والقواعد التنظيمية لازمة. ولا يمكننا أن نتصور ديانة في أي مكان، وبصفة خاصة في العصور القديمة وفي إسرائيل، تخلو من مظاهر العبادة ومن الطقوس والتنظيمات. كما أن الاعتراض القائل بأنْ لا مجال هنالـــك

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للحديث عن ناموس مكتوب له هذا المضمون الغني كما نجده مدوناً في سفر الخروج وحتى سفر التثنية في عصر موسى، يفقد كل قوته بعد اكتشاف شرائع حمورابي الذي عاش قبل المسيح بـــ 2250 سنة وكان حاكماً لبابل مدةِ خمس وخمسين سنة.

ونرى في المقام الثاني أن مضمون الناموس يتفق مع الغرض الـــذي لأجلـــه أعطاه الله. ولكي نحدد قيمته ينبغي ألا نقارنه بالشرائع السائدة في البلاد المســـيحية اليوم. فعلى الرغم من أن الشرائع الموسوية، وبصفة خاصة في مبادئها، تستمر بأهميتها حتى اليوم، فإننا نعلم أن الله نفسه أراد لها أن تكون شريعة مؤقتة، وأنـــه في مـــلء الزمان، عندما تحقق الغاية منها تُترَك جانباً لسبب ضعفها وعدم نفعها.

وعلى هذا النمط عينه، فإن مقارنة ناموس إسرائيل بنواميس الشعوب القديمة مثل بابل مثلاً لا يصلح معياراً للحكم على ناموس موسى. إن مثل هذه المقارنة لها استخداماتها فهي بالطبع تجذب التفاتنا إلى كل نقاط التشابه والاختلاف، وبـــذلك تعاوننا على تفهُّمِ الشريعة الموسوية تفهُّماً أفضل في بعض الحالات. إلا أن شـــعب إسرائيل كان شعباً متميزاً أفرزه الله، وكان له مصيره الخاص ليحققه، أي ليحمـــل الوعد، ولذلك كان على إسرائيل أن يعيش نوعه الخاص من الحياة بما يتمشى أيضاً مع هذا الغرض.

وإذ ننظر إلى شريعة الرب المعطاة لموسى من هذه الزاوية، نتبين المميـــزات الآتية:

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أولاً– إن هذا الناموس ديني تماماً. ولا يتعلق هذا ببعض الأجزاء مثل تلك التي تنظّم العبادة الجمهورية مثلاً، ولكنه ديني بكامله سواء في النواحي الأخلاقية أو المدنية أو الاجتماعية أو تعاليمه السياسية. وفي أعلى الناموس بكامله نجد الكلمات: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من بيت العبودية. ولا يتأسس الناموس على إيمان مجرد بوحدانية الله. ولكن على علاقة تاريخية بين الله وشعبه، علاقة صنعها الله نفسه. إنه ناموس يرتبط بعهد وهو ينظِّم حياة إسرائيل كما ينبغي أن يحياها، في مطابقة لمتطلبات الوعد. فالله هو معطي الناموس في كل الوصايا، ولأجله هو يجب أن تحفظ جميعاً. والفكرة التي تتخلل الناموس كله هي هذه: يهوه أحبك أولاً، أنه بحث عنك، وافتداك، وضمك لعهده، ولذلك يجب أن تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قوتك (تث 6: 5، 10: 12) هذه هي الوصية الأولى والعظمى (مت 22: 37، 38).

ثانياً– إنه ناموس أخلاقي تماماً: هنالك ثلاثة أشياء متميزة نكتشفها فيه: الشرائع الأخلاقية، والمدنية، والطقسية. وهذا تصنيف جيد، ولكننا إذ نميز بين هذه يجب ألا ننسى أن الناموس كله مستوحى من مبادئ أخلاقية وأن هذه المبادئ تؤازره. وكثيراً ما يختلف تطبيق هذه المبادئ الأخلاقية على حالات خاصة عن تطبيقاتنا اليوم. وقد قال المسيح نفسه إن موسى سمح بإعطاء كتاب طلاق لامرأة متزوجة بسبب قساوة قلوبهم (مت 19: 8) والروح الذي يتخلل الناموس الموسوي هو روح المحبة. تحب قريبك كنفسك (لا 19: 18) هذه هي الوصية الثانية وهي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كالأولى (مت 22: 39) وفي هذا يكمل الناموس كله (رو 13: 8، غلا 5: 14، 1 تي 1: 5). ويظهر أن هذه المحبة هي إبداء الرحمة للضعيف والمظلوم، للفقير ، والغريب، والأرامل، والأيتام، والعبيد، والإماء، للصم، للعمي، للعجائز وما أشبه، الرحمة التي لم تعرفها أية شريعة من الشرائع القديمة. وقد قيل، والقول صواب، إن قوانين إسرائيل الأخلاقية قد كُتبت من وجهة نظر المظلومين. و لم ينسَ إسرائيل أبداً أنه كان غريباً وكان عبداً في أرض مصر.

ثالثاً- إنه ناموس مقدس: وهذه الصفة المميزة ليست بحال محدودة بذلك الجزء الذي يحمل بصفة خاصة اسم شريعة القداسة (لا 17 - 26). ومرة أخرى، لا توجد شريعة أخرى محفورة في الذاكرة من العصور المبكرة، تنظر إلى الخطية بعمق شديد على أنها خطية. إذ يصف الناموس الخطية بأسماء مختلفة، فيقول عنها أنها: إساءة، جرم، ارتداد، عصيان، وينظر إليها دائماً أنها في نهاية المطاف تُقترف ضد الله، ضد إله العهد. ولذلك فللخطية دائماً صفة "التعدي" أي نقض العهد. إلا أن هناك غفراناً لكل هذه الخطايا، وإن كان هذا لا يعني أن إسرائيل يحقق غفران خطاياه بأعماله الصالحة أو بتقدماته. لأن الغفران يأتي عن طريق الوعد، فهو هبة، لا من الناموس ولكن من الإنجيل، إن المرء لا يكتسبه بالتقدمات، ولكن يقبله بالإيمان باتضاع الأطفال (خر 33: 19، 34: 6، 7، 9، عد 14: 18 - 20).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلا أنه مما يلفت النظر أن هذه الفصول الكتابية التي تعلن بقوة كبيرة نعمة الله المجانية، تتحدث فوراً عن الدينونة التي بمقتضاها لا يعتبر الله المذنب بريئاً، وانه سيفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع. وهذا لا يتعارض مع ذاك. فلأن يهوه يغفر خطايا شعبه على أساس النعمة عن طريق الوعد، فإنه يرغب أن يسلك شعبه سبيل العهد. وقد نال هذا الامتياز العظيم بالنعمة. أما إن سبيل العهد. وقد نال هذا الامتياز العظيم بالنعمة. أما إن لم يفعل ذلك، فإن الله، بحسب طبيعة الخطية التي اقترفها الإنسان، يسلك سبيلاً من ثلاثة. ففي بعض الحالات يفتح الناموس الطريق ثانية للمصالحة عن طريق التقدمات. والذنب في مثل هذا الحال لا تترتب عليه تبعات مدنية. وفي حالات أخرى يحدد الناموس إحدى العقوبات المدنية، وقد يبلغ هذا أحياناً -وإن لم يكن نادراً بالمقارنة بالعقوبات الأخرى - عقوبة الموت. وفي حالات أخرى كثيرة يحتفظ الله لنفسه بتنفيذ العقاب، ثم يوقع دينونته على الشعب سواء في صورة وبأ أو سبي أو ما أشبه. هذه العقوبات الثلاث التي يطبقها الله على شعبه في حال التعدي، لا تبطل الوعد كما لا تحققَه، ولكنها مجرد الوسائل التي ينجز الله بها وعده لشعبه ويسبغ عليهم أمانته حتى في وقت الارتداد عنه والإساءة إليه.

فقد عرف الرب إسرائيل وحده من بين شعوب الأرض، ولذلك فهو يعاقبه على كل آثامه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

رابعاً– إن الناموس الموسوي، أخيراً، هو أيضاً ناموس حرية. إنه يفترض وكذلك يمنح قدراً كبيراً من الحرية. ويظهر هذا فوراً وبوضوح من الحقيقة اللافتة للنظر وهي أن الشعب يذعن من جانبه بمحض اختياره لعهد الله ويلتزم طواعية العمل بناموس الله. إنَ الله لا يفرض نفسه ولا شريعته على شعبه، بل إنه يدعوهم إلى الإذعان طوعاً واختياراً (خر 19: 8، 24: 3، 7، تث 5: 27، يش 24: 15 - 25). وبالإضافة إلى ذلك فإن الناموس لا يتدخل في الحقوق والعلاقات القائمة، ولكنه يفترض وجودها ويعترف بها. فعلى أي حال، لا بد أن إسرائيل نظم نفسه بصورة أو بأخرى قبل إعطاء الشريعة في سيناء. فقد كان إسرائيل، على سبيل المثال، موزعاً بحسب الأنساب على عائلات وبيوت (مجموعة عائلات) وعشائر وأسباط، وبذلك كان منظَماً على أساس الآباء القدامى (آباء العهد القديم الأوّلين). وكل واحد من أقسام الشعب الفرعية الأربعة كان له رأسه أو ممثله. ويشكل كل ممثلي الشعب الذين يسموهم مشايخ أو أمراء مجمع إسرائيل (يش 7: 14) ولقد انعقدت بعض مجامع الشيوخ في مصر (خر 4: 29، 3: 16 والآيات التالية)، وكثيراً ما اجتمعوا بعد الخروج لسماع كلمات الرب (خر 19: 7)، وليبلغوا الشعب التعاليم التي قدمها موسى (تث 22، 23)، أو ليعرضوا هم أنفسهم بعض الأفكار على موسى (تث 1: 22، 23). وبالإضافة إلى مجمع الشيوخ كانت هنالك وظيفتان أخريان: الأولى وظيفة المدبِّرين أو العرفاء الذين نظموا الأمور المتعلقة بالشؤون المدنية، وكان لهم نشاطهم في مصر (خر 5: 6، 10، 14، 19، عد 11: 16،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تث 1: 15، 16: 18، يش 23: 2)، والوظيفة الثانية وظيفة القضاة التي أدخلها موسى ليعاونه هؤلاء في الأمور المتعلقة بالناموس (خر 18: 21، 23، تث 1: 13 والآيات التالية). وقد أصبح القضاة في ما بعد، شأنهم شأن العرفاء محدَّدين ومعروفين في جميع المدن ويختارهم الشيوخ.

وفي تنظيم الشعب بهذه الصورة كان "البيت" يمثل نقطة الانطلاق والأساس. ومازال البيت يحتل مكاناً مكرماً جداً بين اليهود اليوم. ولأن البيت احتل مثل هذا المكان الهام في إسرائيل، فإن الزوجة أيضاً نالت نصيباً من الإكرام يفوق نصيبها عند الشعوب القديمة كافة. والسؤال الذي يضع النقط على الحروف في هذا الشأن – كما أُبديَت هذه الملاحظة في محلها – هو هل كان الرجل في المجتمع الإسرائيلي يعتبر عضواً في الأسرة قبل أي اعتبار آخر سواء كزوج أو ابن أو أخ، أو كان يُنظَر إليه كمواطن ومحارب. كانت الفكرة الثانية هي السائدة في اليونان وروما، وترتب على ذلك أن ردوا المرأة إلى الوراء واعتبروها أقل شأناً من الرجل. أما في إسرائيل فقد اعتُبِر الرجل أولاً عضواً في العائلة، وكان واجبه الأول هو أن يعتني بالأسرة. ومن هذا المنطلق لم يكن موقفه ضد الزوجة أو أعلى منها بل إلى جوارها. فمن حقها معه أن يقدم لهما الأبناء الاحترام والمحبة (خر 20: 2) وكانت، باعتبارها الشخصي تستحق مدح زوجها (أم 12: 4، 31: 10 والآيات التالية).

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كانت صيغة الحكم وإدارة الشؤون التي يغلب عليها هذا الطابع، بما له من مركزية للآباء، وأرستقراطية، هي القائمة في إسرائيل حتى قبل أن يقرها النــاموس ويؤكدها. وجزء كبير من الشرائع يشير إلى الزواج ويعمل على حفظ قدسية الحياة الزوجية ويحمي البيت. وبعض التشريعات الأخرى تحمي أسلوب الحكم الآبائي من النظام الكهنوتي ومن الملكية. فهنالك تمييز بين الشيوخ والعرفاء والقضاة وبين الكهنة واللاويين. و لم يكن للكهنة أيضاً مكان إلا في أعلى درجة من درجات المحاكم (تث 17: 8 - 13، 19: 17 و 18) حيث التفسير الصحيح للشريعة كــان علــى جانب كبير من الأهمية في القرارات الهامة التي تتخذ على هذا المستوى، وكان الكهنة مكلّفين بمثل هذا الأمــر (لا 10: 8 - 11، خــر 7: 26، 44: 23، إر 18: 18).

وقد كان إسرائيل بنظامه السياسي كلّه نقيض الدولة الملكية. كما أنــه لم يكن هنالك مجال للاستبداد بعد إعطاء الناموس. وعندما طلب إسرائيل في ما بعــد ملكاً من الله. فكان له ذلك (1 صم 8: 7) لم يكن هذا الملك ليصبح ملكاً كملوك سائر الشعوب. لقد كان مقيّداً بناموس الله وعليه أن ينفذ إرادة الله (تث 17: 14 - 20) فالله، في نهاية المطاف، هو الملك، كما أنه معطي الشريعة وقاضي إسرائيل (خر 15: 18، 19: 16، عد 23: 21، تث 33: 5، قض 8: 22 والآيات التالية، 1 صم 8: 7، إش 33: 22، مز 44: 5، 68: 25)، ويبدو هذا واضحاً في أن الله، كقاعدة عامة، هو الذي ينطق بالحكم عن طريق القضاة الــذين يجــب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عليهم أن يكونوا في غاية الحيدة في أحكامهم، وألا يقيموا اعتباراً للأشخاص. كما كان عليهم أن يُصدروا أحكامهم لا لأي اعتبار سوى أن تكون مطابقة لقواعد الناموس. كما يبدوا هذا واضحاً أيضاً في أنه في حالات خاصة، أعلن الله إرادته عن طريق القرعة، والأوريم، والتميم والأنبياء. كما عبر عن ذلك بأقوى صورة، حيث احتفظ الله لنفسه في حالة التعديات الكثيرة بتطبيق العقوبة. وعدد كبير من القواعد التي وضعها الناموس لم ينصرف لتحديد عقوبة خاصة في حالة مخالفة كل شريعة، ولكنه كان ببساطة نصائح مشددة وتحذيرات موجهة إلى الضمير، ولذلك تركت لإسرائيل مجالاً كبيراً للحرية. وكانت أنواع العقوبات أيضاً محدودة، تتكون أساسا من ضربات (جلدات)، وفي حالات التجاوزات الصارخة مثل التجديف، وعبادة الأوثان، والسحر والشعوذة، ولعن الوالدين، والقتل، والزنى، كان الحكم بالموت رجماً. لا توجد هنالك أية إشارة لمحاكم لتفتيش أو أدوات التعذيب أو الاعتقال، أو النفي، أو مصادرة الممتلكات، أو الموت حرقاً، أو الموت شنقاً، أو ما أشبه. فإن سلك إسرائيل في طريق العهد، فإنه ينال بركات كثيرة من الرب، أما إن لم يطع صوت الرب، فسوف يفتقدهم الرب بلعنته، وتصيبهم كل أنواع الكوارث (تث 28: 29).

ومن هذه السمات المميزة للناموس، يصبح الغرض الذي من أجله أعطاه الله لإسرائيل واضحاً. ويحدد الرب نفسه هذا الغرض أعطاه الله لإسرائيل واضحاً. ويحدد الرب نفسه هذا الغرض إذ يأمر موسى بأن يقول لشعب إسرائيل، بعد انتهاء العهد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في سيناء، إنهم إن كانوا يسمعون صوته ويحفظون عهده سيكونون خاصته من بين كل الشعوب، مملكة كهنة وأمة مقدسة (خر 19: 5، 6). وليكون شعب إسرائيل الأمة التي اختارها الله من بين كل شعوب الأرض، فإن هذا الشعب يجب أن يوطد نفسه في طريق العهد، لأن الله لم يختر إسرائيل لأجل ما تميز به أو لأجل ما يستحقه، بل بمقتضى محبة الله المطلقة وقسمه للآباء (تث 7: 6 - 8). و لم ينل إسرائيل هذا الامتياز الكريم لكي يزدري بالأمم ويرفّع نفسه عالياً فوقهم، بل ليكون مملكة كهنة ولهم وظيفة كهنوتية يقومون بها تجاه الأمم، ليأتوا بهم إلى معرفة عبادة الله، وبهـذه الوسيلة فقط تكون لهم السيادة على الأمم. ولا يمكن لإسرائيل أن يتولى هذه الدعوة الإلهية ويتممها إلا بأن يكون أمة مقدسة، وبأن يكرس نفسه تماماً كشعب للرب، فيسمع صوته، ويسلك في عهده.

وهذه القداسة التي دعا الله إليها إسرائيل، لا تبلغ بعدُ معناها الكامل والعميق الذي لها في العهد الجديد. فهي لا تتضمن الناحية الأخلاقية فقط، بل كما يتضح من قانون القداسة في (لا 17: 26) تشمل أيضاً القداسة الطقسية. إلا أننا يجب أن نلاحظ أن الجزأين الأخلاقي والطقسي في الناموس لا يتعارضان، لكونهما جانبين لموضوع واحد بعينه. فإسرائيل شعب مقدس عندما يعيش داخليّاً وخارجيّاً في الإيمان والسلوك بمقتضى جميع الشرائع الأخلاقية والاجتماعية والطقسية المعطاة للشعب في سيناء. وإن كان هذا الشعب- كما عرف الرب - يفشل في أن يكون أميناً لدعوته، وإن كان في تاريخه يذنب بالعصيان والارتداد، فإن الله لا بد أن يفتقده بعقوبات

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أشد من العقوبات التي يوقعها على شعوب العالم الأخرى. ولا يعود الرب لشعبه ويتحنن عليهم، إلا بعد أن ينتهي افتقاده لهم، فيختن قلوبهم وقلوب أبنائهم حتى يحبوا الرب إلههم بكل قلوبهم وكل نفوسهم (تث 4: 19 - 21). وهو لا يترك شعبه لطرقهم، لأنه يحب أن يهتم باسمه وجلاله إزاء أعدائه (تث 32: 26 والآيات التالية)، رغم عدم أمانة إسرائيل، بل في أثنائها أيضاً فإن الرب يجب أن يثبت أمانته، وصدق كلمته وعدم تغيُّر مشورته وثبات عهده. فيجب أن يظهر أنه الله وانه لا يوجد إله آخر معه (تث 32: 39). وهكذا ينتهي الناموس بالوعد، كما ابتدأ، فيعود إلى نقطة انطلاقه.

****

إذاً من هذه النقطة المتميزة من العهد يبدأ الكتاب المقدس نظرته إلى كل تاريخ إسرائيل. وليس هدف الكتاب المقدس في كتب العهد القديم التاريخية هو أن يقدم سجلاً كاملاً موحداً لكل ما أصاب شعب إسرائيل، ولا أن يتابع سلسلة الأسباب التي تربط الأحداث بعضها بعض. فبدلاً من ذلك، يصف الكتاب المقدس تقدُّم ملكوت الله. وكل ما له صلة ضئيلة بهذا أو لا صلة له به على الإطلاق يذكر باختصار أو يُغفَل تماماً.

وفي المقابل، يطول الحديث بشأن ما له أهمية بالنسبة لهذا الملكوت. ويريد الكتاب المقدس من وراء تدوين تاريخ إسرائيل أن يعلمنا مَن هو الله وما هو بالنسبة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لشعبه. ولذلك فلعله من المناسب أن قيل إن كتابات الكتاب المقدس التاريخية هـــي "يوميات يهوه" وكأن الرب يدون يومياً اختباراته واهتماماته بإسرائيل.

وفي الفترة المبكرة، عندما كان الشعب ما زال يعيش تحت تأثير أعمال الله العظيمة، ظلوا أمناء للشريعة. فلقد برهن يهوه بوضوح تام بهذه الأعمال العظيمة أنه الإله الواحد الحقيقي (خر 6: 6، 18: 18) فلم يفكر الشعب في آلهة أخرى. ولما سمعوا كلمة الرب على فم موسى، استجابوا جميعاً كما بصوت واحد: "كل ما تكلم به الرب نفعل" (خر 19: 8، 24: 3، 7، تث 5: 27). وفي ما بعد ذلك أيضاً، عندما أخذ إسرائيل كنعان ميراثاً لهم، وواجههم يشوع بوقار شيبته بأن يختاروا من يعبدون، فإن إسرائيل أجاب وكأنما بشيء من الكبرياء: حاشا لنا أن نترك الــرب لنعبد آلهة أخرى (يش 24: 16، قض 2: 7).

إلا أنه عندما مات يشوع وكبار السن من الشعب الذين شاهدوا أعمال الله العظيمة، وجاء جيل آخر لم يعرف الرب ولا ما عمله لأجل إسرائيل، ارتد الشعب عن الرب إله آبائهم الذين أخرجهم من مصر، وتبعوا آلهة أخرى، آلهة الأمم المجاورة (قض 2: 6 - 13). ولم يكن إسرائيل مجدِّداً في عبادة الأوثان، فلم يبتكر ديانتـــه الباطلة الخاصة، ولكنه بدلاً من ذلك اتخذ آلهة الوثنيين كآلهة له، أو قام بعبادة الرب في شكل صور كما فعل الوثنيون. ففي مصر وفي البرية سقط الشعب في العبـــادة المصرية للأوثان (خر 16: 28، يش 24: 14، حز 20: 7، 13)، وبعد ذلك،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في فلسطين، أذنبوا بعبادة آلهة كنعان والفينيقيين، بعل، السواري، عشتاروت، وآلهة أشور: النار والنجوم (قض 10: 6، 2 مل 21: 3، 5، 7، 23: 5 - 15، إر 7: 24 - 31، حز 20: 2، 22: 3). فكسر إسرائيل بصفة مستمرة الوصية الأولى والثانية وبذلك نقضوا أساسات العهد.

ومنذ ذلك الوقت المبكر، منذ أيام القضاة أبطال شعب الناموس، كان تاريخ إسرائيل عبارة عن ارتداد عن الرب، وعقاب، يترتب عليه خوف. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فنجد الإنقاذ والبركة (قض 2: 11 - 23). وكانت تلك فترة ارتباك، فقد خلالها مختلف الأسباط رؤية القضية القومية، وانغمس كل سبط في شؤونه السياسية الخاصة. وفعل كل واحد ما حسن في عينيه (قض 17: 6، 21: 25) وإن كان صموئيل وقيام الملكية قد وضعا حداً لهذا الحال، فإن الوحدة القومية انفصمت تماماً بعد سليمان، وانفصل عشرة أسباط عن بيت داود الملكي. وجعل يربعام من هذا القرار السياسي قراراً دينياً، بأن أقام معبداً خاصّاً في دان، وادخل عبادة التماثيل، وقضى على الكهنوت الشرعي. . وبذلك أصبح يربعام الملك "الذي جعل إسرائيل يخطئ". وأصبح تاريخ مملكة أفرايم خلال القرنين التاليين ونصف القرن تاريخ التردي في الارتداد عن يهوه. وعبثاً رفعت النبوة صوتها، وبلغت الأمور ذروتها بسبي الأسباط العشرة. ومع أن مملكة يهوذا امتازت عن مملكة إسرائيل بأن استمر بيت داود الملكي يحكمها، وبذلك استمرت تمتلك مكان العبادة الرسمي والكهنوت الشرعي، ففي هذه المملكة أيضاً، ورغم جميع الإصلاحات التي قام بها ملوك أتقياء،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وصل الارتداد والشر في النهاية درجة كبيرة، فكان لا بد من الدينونة. وبعد حوالي 140 سنة من بعد نهاية مملكة إسرائيل، فقدت يهوذا أيضاً وجودها المستقل.

إلا أن هذا الارتداد المستمر لشعب إسرائيل يجب أن لا يُخفي عن عيوننا حقيقة أن الله خلال القرون المختلفة، حفظ منهم بقية بحسب اختيار نعمته، إذ طالما كانت هنالك جماعة صغيرة من إسرائيل ظلّت أمينة لعهد يهوه. حتى في أيام إيليا الحالكة، كان هنالك سبعة آلاف لم يحنوا ركبة لبعل. كان هؤلاء هم الأتقياء، الأبرار، الأمناء، المعدمين، الفقراء، أو كيفما وصفوا في المزامير، واستمر هؤلاء يضعون ثقتهم في إله يعقوب، و لم يتعاملوا بزيف مع عهده. لقد اشتاقوا إلى الله كما يشتاق الأيل إلى جداول المياه، وفضلوا هيكله على أي مسكن آخر، وتأملوا شريعته وتمسكوا بمواعيده. و لم يكن الناموس بالنسبة إليهم عبئاً بل لذة وسروراً، وابتهجوا فيه كل النهار. وكرروا كلمات موسى، وقالوا إن حفظ هذا الناموس هو الحكمة والفطنة أمام أعين الشعوب. لأنه عندما يسمع الناس فرائض الناموس، كان سيقولون: حقاً إن هذا الشعب العظيم. إنما هو شعب حكيم وفطن. لأنه أي شعب هو عظيم له فرائض وأحكام عادلة مثل كل هذه الشريعة التي أنا واضع أمامكم اليوم (تث 4: 6 - 8).

وازدادت هذه البقية تمسُّكاً بالموعد كلما زادت الأيام ثقلاً. و لم يتخلَّ الرب عن عمل يده. فلأجل اسمه ولأجل معرفة اسمه لا يتخلى عن العهد الذي قطعه مع

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

آبائهم في سيادة نعمته. وأقام الله من بينهم أنبياء، ومرنِّمين وحكماء أعلنوا كلمة الله، وشرحوا معنى الوعد في سرد يتزايد وضوحاً. وفي قلب الكوارث التي ألمت بهم، رفعوا رؤوسهم عالياً. واستطاعوا أن ينفذوا إلى المستقبل بنور روح الرب، وتنبأوا عن اليوم الجديد، يوم ابن داود وربه، وعن أصل يسى، وعن عمانوئيل، غصن البر، خادم الرب، ملاك العهد، وعن العهد الجديد، وعن انسكاب الروح القدس. ويبدأ العهد القديم بعد السقوط بالوعد بنسل المرأة (تك 3: 15)، وينتهي بإعلان مجيء ملاك العهد (ملا 3: 1).

****

وبعد السبي، استمرت أيضاً مثل هذه البقية الأمينة في إسرائيل (ملا 3: 16). فلقد عمل السبي في الواقع على تطهير الشعب كشعب، فتحولوا بصفة قاطعة عن الأوثان وعبادة الصور، وخضعوا لتأديب الشريعة الصارم على يدي عزرا ونحميا. إلا أن هذه الحالة أتت بأخطار في أعقابها. فلقد ظهرت الدراسات "المدرسية" للكتب المقدسة، تلك الدراسات التي أمعنت وفحصت فحصاً أعمى كلمات الناموس، ولكنها لم تبصر بتاتاً جوهر العهد القديم وروحه. وظهرت جماعات مختلفة مثل الفريسيين والصدوقيين وجماعة الأسينيين. وبمعالجة عشوائية للإعلان الإلهي بدلوا بإسرائيل الروحي إسرائيل جسدياً. ورغم ذلك استمرت قيادة الرب لشعبه مدّةَ أربع مئة عام، في الفترة مابين ملاخي ويوحنا المعمدان. و لم يستمتع إسرائيل قطٌّ باستقلال

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

سياسي كامل مرةً ثانية، فانتقل من يد قوة عظمى إلى يد أخرى، وخضع على التوالي لفارس ومادي، ولمقدونيا ومصر، ولسوريا وروما. فكانوا عبيداً في أرضهم نفسها (نح 9: 36، 37).

إلا أن هذا الاستعباد السياسي كانت له بعض النتائج الطيبة. فابتدأ إسرائيل يتأمل شيئاً فشيئاً شخصيتَه ودعوته، وابتدأ يفاخر مرة أخرى بما يمتلكه روحياً من إعلان إلهي، ونظر لهذا الإعلان باعتباره امتيازه الخاص، وأعطى كل ما يمكنه من عناية عظيمة لجمع هذا الإعلان وحفظه. وبالإضافة إلى ذلك فإن إدراكه لامتيازاته الروحية أصبح حقيقة قوية بالنسبة إليه، لدرجة أن هذا لم يؤثر فقط في تكوين شخصيته، بل ساعده أيضاً على المحافظة على استقلاله القومي رغم الاضطهادات الشديدة. ولقد قاسى إسرائيل الألم والاضطهاد أكثر من أي شعب آخر في العالم.

واستمر إسرائيل هو إياه سواء في فلسطين أو خارجها. ووجد في العهد القديم كنزاً أثمن من كل حكمة الأمم. وكوَن إسرائيل مجتمعاً في مختلف بلاد العالم عاصمته أورشليم. وقدم الشعب في مجامعه للأمم الوثنية صورة لديانة بلا صور ولا مذبح، بلا ذبائح ولا كهنوت. وحدثوا الناس في كل مكان عن وحدة إله إسرائيل وكماله، وحملوا في صدورهم الرجاء الذي لا ينتزع بمستقبل مجيد، سيكون أيضاً بركة للأمم. وهكذا مهد إسرائيل الطريق للمسيحية بين الشعوب الوثنية. وفي داخل إسرائيل حفظت نعمة الله كثيرين من الأمناء الذين مثل سمعان الشيخ ومثل حنة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

انتظروا فداء إسرائيل في ترقُّب هادئ. وأمجد مثال لهؤلاء القديسين هو مريم أم الرب. ففيها يبلغ إسرائيل هدفه: أي أن يقبل أسمى إعلان إلهي بإيمان كإيمان الأطفال ويحفظه: هوذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك! (لو 1: 38).

****

وهكذا يجتمع مُجمَل إعلان العهد القديم حول المسيح، لا حول ناموس جديد، ولا عقيدة ولا مؤسسة، بل إنما حول شخص المسيح. فإعلان الله المكتمل هو شخص. إنه ابن الإنسان الذي هو ابن الله الوحيد. والعلاقة ليست بين العهد القديم والعهد الجديد مثل العلاقة بين الناموس والإنجيل. ولكنها علاقة وعد وتحقيق الوعد (أع 13: 12، رو 1: 2)، جسم وظله (كو 2: 17)، صورة وحقيقة (عب 10: 1)، شيء متزعزع وشيء ثابت (عب 12: 27)، عبودية وحرية (رو 8: 15، غلا 4). وحيث إن المسيح كان هو المضمون الحقيقي لإعلان العهد القديم (يو 5: 39، 1 بط 1: 11، رؤ 19: 10) فهو في تدبير العهد الجديد حجر زاويته وتاجه: هو تكميل الناموس، وتكميل كل بر (مت 3: 15، 5: 17) وتكميل جميع المواعيد التي تجد فيه كلُّها النعم والأمين (2 كو 1: 20)، وفيه تكميل العهد الجديد الذي تأسس بدمه (مت 26: 28). حتى إن شعب إسرائيل نفسه، بكل تاريخه ووظائفه ومؤسساته، وهيكله ومذبحه، وذبائحه وطقوسه، ونبواته، ومزاميره، وتعاليم الحكمة الخاصة به، إنما يبلغ هدفه وغرضه في المسيح. فالمسيح هو إتمام كل هذا، أولاً في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

شخصه وظهوره، ثم في كلامه وأعماله، في ميلاده وحياته، في موتـــه وقيامتـــه، في صعوده وجلوسه على يمين الله.

فما دام قد ظهر فعلاً، وأنجز عمله، فإن إعلان الله لا يمكن أن يضاف إليه أو يزاد عليه. وكل ما يمكن عمله هو إيضاحه عن طريق شهادة الرسل، وأن يُكرَز به لكل الأمم. وحيث إن الإعلان قد اكتمل، فقد جاء الوقت الذي يصبح فيه مضمونه ملكاً للبشرية كلها. فبينما قاد كل شيء في العهد القديم إلى المسيح، فكل شيء في العهد الجديد يُستمدَ منه. إن المسيح هو نقطة تحولُّ الأزمنة. وإذا بالوعد الذي كان لإبراهيم يصبح لكل الأمم. وأورشليم الأرضية، تفسح في المجال لأورشليم التي هي من فوق والتي هي أُمَنا جميعاً (غلا 4: 26)، وتحل الكنيسة، من كل لسان وشعب، محل إسرائيل. هذا هو تدبير ملء الأزمنة الذي فيه نقض حائط السياج المتوسط، إذ يصير اليهودي والأممي معاً إنساناً جديداً، وفيه يتجمع الكل معاً تحت رأس واحد هو المسيح (أف 1: 10، 2: 14، 15).

ويستمر هذا التدبير حتى يدخل كل الأمم، ويخلص إسرائيل. وبعد أن يجمع المسيح كنيسته ويهيئ عروسه، ويتمم ملكوته، سيعطيه للآب ليكون الله الكل في الكل (1 كو 15: 28). أكون إلهكم وتكونون شعبي: كان هذا هو مضمون الوعد. ويبلغ هذا الوعد تحقيقه الكامل في أورشليم الجديدة في المسيح، عن طريق ذاك الذي كان والكائن والذي يأتي (رو 21: 3).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل السابع

الكتب المقدسة

نستمد معرفتنا للإعلان الإلهي العام والخاص من الكتب المقدسة. ومن الأهمية بمكان أن نتفهم العلاقة بين الإعلان والكتب المقدسة. فنلاحظ، من ناحية، أن بينهما فارقاً كبيراً. فالإعلان يسبق أمر تدوينه بوقت طويل في أحيان كثيرة. ولذلك، فمع أن الإعلان كان موجوداً بالتأكيد قبل موسى، لم تكن هنالك كتب مقدسة. وبالإضافة إلى ذلك فإن مثل هذا الإعلان تضمَن، في أحيان كثيرة، أكثر بكثير مما تم تدوينه فيما بعد. وكتب الأنبياء، كسفر عاموس مثلاً، كثيراً ما تكون مجرد خلاصة لما تحدثوا به شفاهاً إلى الناس الذين عاصروهم . وكثيرون من أنبياء العهد القديم، وكثيرون من الرسل في العهد الجديد، وقد كانوا جميعاً قنوات للإعلان الخاص، لم يتركوا من بعدهم أيَّ سجلٍّ مكتوب. بل إن الكتاب يقول لنا بوضوح إن يسوع صنع آيات أخرى كثيرة، لدرجة أنه لو كتبت واحدة واحدة فإن العالم نفسه لا يسع الكتب المكتوبة (يو 20: 30، 21: 25) ومن الناحية المقابلة فلربما أعلن الله شيئاً لأنبيائه أو للرسل أثناء الكتابة لم يعرفوه من قبل ذلك، وبالتالي فلا يكونون قد نادوا به للآخرين قبل ذلك. يصدق هذا، على سبيل المثل، ولو جزئياً، على الإعلان الذي تلقاه يوحنا في جزيرة بطمس بشأن المستقبل.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فالكتب المقدسة إذاً ليست هي الإعلان نفسه، بل هي وصف أو تدوين منه نعرف الإعلان. إلا أننا عندما نقول أن الكتب المقدسة هي سجل الإعلان، فيجب أن نكون على حذر من خطأ آخر. فعلى أي حال، هنالك أولئك الذين لا يميِّزون فقط بين الإعلان الإلهي والكتب المقدسة بل يفصلون ويباعدون بين الاثنين. هؤلاء يقرون بأن الله عمل بكيفية خاصة في الإعلان السابق للتدوين، أما في ما عدا ذلك فإنهم يعتقدون أن تدوين الإعلان الإلهي كان متروكاً تماماً للأشخاص الذين قاموا ذلك، وأن هذا يخرج تماماً عن نطاق عناية الله الخاصة. والكتب المقدسة، بناءً على هذا الرأي، تظلُّ سجلاً للإعلان، ولكنه سجل عرضي تشوبه العيوب. ويترتب على ذلك أنه يجب أن نفحص الكتب المقدسة جيداً، ونتكبد في سبيل ذلك مشقة كبيرة، لنكتشف الأجزاء التي تنتسب إلى الإعلان الخاص، والأجزاء التي لا تتصل به. وعلى هذا الأساس يميزون تمييزاً كبيراً بين كلمة الله والكتب المقدسة. وهي وجهة نظر تقود إلى القول بأن الكتب المقدسة ليست كلمة الله، ولكن كلمة الله متضمِّنة في الكتب المقدسة.

مثل هذه النظرة إلى الموضوع، هي في ذاتها بعيدة الاحتمال. فبالإضافة إلى أنها تفسِّر العلاقة بين الكلمة والكتب بطريقة آلية جداً، فهي أيضاً تنسى حقيقة أن الله عندما أراد أن يعلن إعلاناً خاصاً، ذلك الإعلان الذي، من خلال نسل إبراهيم، تعين لكل البشر في المسيح، كان عليه أيضاً أن يتخذ خطوات خاصة ليحفظ هذا الإعلان في حالته النقية، وان يجعل هذا الإعلان متاحاً للجميع. والكلمات المكتوبة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تختلف عن الكلمات المنطوقة في كونها لا تضيع في الهواء، ولكنها تبقى. فهي ليست مثل التقليد الشفهي عرضة للتزييف، كما أنها لا تقتصر في مجالها على العدد المحدود الذي استمع إليها، بل هي بالأحرى من النوع الذي يمكن أن يُنشر لجميع الشعوب والبلدان. فالكتابة تضفي على الكلمة المكتوبة استمرارية، وتحفظها من كل زيف، وتنشرها على أوسع نطاق.

وعلى أي حال، فنحن لسنا بحاجة لأن نقضي وقتاً أطول في هذه المجادلات البشرية. فالرأي القائل بأن الإعلان الخاص يأتي من الله، أما الكتب المقدسة فقد وجدت بعيداً عن عنايته الخاصة هو رأي يناقض تماماً شهادة الكتب المقدسة نفسها. فهي تعلن مراراً وتكراراً وتؤكد أنها بوصفها كتابات فهي أيضاً كلمة الله. وإن كنا نميز بين الكتب المقدسة والإعلان الذي يسبقها فنحن لا نفصل بينهما. فالكتب المقدسة، بالنسبة إلى الإعلان، ليست إضافة بشرية، عرضية، جزافية، تشوبها العيوب، ولكنها هي نفسها جزء من مكوِّنات الإعلان. والكتب المقدسة هي في الواقع تكميل الإعلان وتحقيقه بل حجر الزاوية الذي فيه يبلغ الإعلان أوجه.

****

ولندرك قوة هذه الحقيقة يجب أن نلاحظ ما يلي: من شهادات الكتاب المقدس الواضحة عن نفسه:

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أولاً: كثيراً ما يأمر الله أنبيائه لا بأن ينادوا بالإعلان شفاهاً فقط، بل بأن يدوِّنوه أيضاً. ففي (خر 17: 14) يأمر الرب موسى بأن يدوِّن خبر الحرب مع عماليق والانتصار عليه، وهي معركة كانت لها أهمية كبرى بالنسبة لإسرائيل، وذلك كتذكار في الكتاب عن أعمال الفداء الإلهية. وفي (خر 24: 3، 4، 7) وكذلك (34: 27) يكلِّف موسى القيام بتدوين الشرائع والأحكام التي بمقتضاها قطع الله عهده مع إسرائيل. وعندما بلغ إسرائيل نهاية تيهانه في البرية ووصل مقابل أريحا في سهول موآب، يحدثنا الكتاب صراحة بأن موسى سجل رحلات بني إسرائيل بحسب أمر الرب (عد 32: 2). وفضلاً عن ذلك فإن الكتاب يقول بالتحديد عن النشيد الذي تغنى به موسى في (تث 32) إنه يجب أن يدوَّن ويتعلَّمه بنو إسرائيل حتى متى ارتدوا في الأيام التالية ويقوم هذا النشيد شاهداً عليهم (تث 31: 19، 22). وهنالك أوامر مماثلة للأنبياء ليدونوا الإعلان الذي تسلموه في وقتهم (إش 8: 1، 30: 8، إر 25: 13، 30: 2، 36: 2، حز 24: 2 ، دا 12: 4، حب 2: 2). ومع أن هذا الأمر يتعلق بجزء صغير من الكتب المقدسة، فإنه ينبِّه، رغم ذلك، على أن الله، الذي أوصي بأن لا يضيف أحد شيئاً أو يحذف شيئاً من أقواله (تث 4: 2، 12: 32، أم 30: 6) قد أولي هو أيضاً سجلَ إعلانه المكتوب عناية خاصة.

ثانياً: إن موسى والأنبياء أنفسهم كانوا على دراية تامة بأن واجبهم لم يكن مجرد إعلان الكلمة شفوياً فقط، بل كان عليهم تدوينها أيضاً. وقد دُعيَ موسى إلى عمله بكيفية خاصة، إذ دُعي ليكون قائداً لشعب إسرائيل (خر 3) إلا أن الله تحدث

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إليه وجهاً لوجه كما يكلِّم الإنسان صاحبه (خر 33: 11) وعرّفه كل شـرائعه وفرائضه. وكديباجة لكل شريعة من الشرائع، نجد مراراً وتكراراً الكلمات "وتكلم الرب" ثم "قال الله" وما أشبه (خر 6: 1، 10، 13. . . . الخ). ففي كتابـات موسى، كما في سائر الكتب المقدسة، نجد أن إعطاء الناموس كله يُنسَب إلى الرب. "يخبر يعقوب بكلمته، وإسرائيل بفرائضه وأحكامه. لم يصنع هكذا بإحدى الأمم، وأحكامه لم يعرفوها" (مز 147: 19، 20، 103: 7) والأنبياء أيضاً يـدركون مصدر نبواهم. فهم يعلمون أن الرب قد دعاهم (1 صم 3، إش 6، إر 1، حز 1 - 3، عا 3: 7، 8، 7: 15) وأهم تسلموا الإعلان الذي وصل إليهم منه (إش 5: 5؛ 6: 9؛ 22: 14، 28: 22، إر 1: 9؛ 3: 6، 20: 7 - 9، حز 3: 16، 26، 27، عا 3: 8. . . . . الخ) وما قاله عاموس إنما يعبر عن اقتناعهم جميعاً: "إن السيد الرب لا يصنع أمراً إلا وهو يعلن سره لعبيده الأنبياء" (عا 3: 8، قارن 18: 17). لكنهم يعلمون أهم عندما يكتبون فإهم يعلنون كلمة الرب وليس كلامهـم الخاص. وكما فعل موسى وهو يدون الشريعة، هكذا استهل الأنبياء نبواهم الخاصة بالعبارات: "هكذا يقول الرب" "وكانت إلي كلمة الرب" أو "رؤيا" أو ("كلمةُ" أو "وحيُ") الرب (إش 1: 1، 2: 1؛ 8: 1، 13: 1، إر 1: 2، 4، 11، 2: 1، حز 1: 1، 2: 1، 3: 1، دا 7: 1، عا 1: 3، 6، 9 ومواضع أخرى).

ثالثاً: هنالك شهادة العهد الجديد. ومع أن الرب يسوع والرسل يقتبسون مرات كثيرة كلمات من العهد القديم تحت أسماء موسى وإشعياء وداود ودانيال (مت

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

8: 4، 15: 7؛ 22: 43، 24: 15) فإنهم يستخدمون، ولمرات لا تقل عدداً، أمثال العبارات الافتتاحية "مكتوب" (مت 4: 4) أو "كما قال الكتاب" (يو 7: 38) أو "كما يقول الروح القدس" (عب 3: 7) وما أشبه. وبهذا الأسلوب في الاقتباس أظهروا بوضوح أنه، مع أن كتابات العهد القديم مكوَّنة من أجزاء مختلفة وعن طريق كتّاب مختلفين، فهي رغم ذلك وحدة عضوية واحدة في صورتها المكتوبة أيضاً، وصادرة من الله نفسه. ولا يعبّر الرب يسوع والتلاميذ عن هذه الحقيقة بمجرد إشارة غير مباشرة، بل يتحدّثون بصورة مباشرة وبأوضح الكلمات. ويعلن المسيح أنه لا يمكن أن ينقض المكتوب، أي يجرَّد من سلطانه (يو 10: 35)، وهو يعلن أنه لم يأت شخصياً لينقض الناموس أو الأنبياء بل ليكمّل (مت 5: 17، لو 6: 27). ويكتب الرسول بطرس قائلاً إن كلمة النبوة ثابتة وجديرة بالثقة وأنها نور لسبيلنا. وهي كذلك لأن الكتب المتضمَّنة في العهد القديم لا تتأسس على نبوة شخصية أو تفسير شخصي للمستقبل، لأنه لم تأت نبوة فقط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين بالروح القدس (2 بط 1: 19 - 21، قارن 1 بط 1: 10 - 12). وبهذا المعنى يشهد بولس الرسول أيضاً بأن الكتب المقدسة التي تكوّن معاً العهد القديم يمكن أن تحكِّمنا للخلاص، إن كنا نفحصها ونقرأها بالإيمان، الإيمان الذي في المسيح يسوع. لأن كل سفر من الكتب المقدسة هو موحى به من الله، ولهذا فهو نافع للتعليم والتوبيخ والتقويم والتهذيب الذي في البر (2 تي 3: 16).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

رابعاً: وبشأن كتابات العهد الجديد نفسها يمكن القول بأنه مع أن المسيح نفسه لم يترك من بعده وثيقة مكتوبة، فهو اختار ودعا وأهّل تلاميذه ليذهبوا في وسط العالم، وبصفة خاصة بعد رحيله، ليكونوا شهوده (مت 10: 1؛ مر 3: 13؛ لو 6: 13؛ 9: 1، يو 6: 70). وهو يؤهلهم لهذا العمل بإعطائهم مواهب وقوى خاصة، وبصفة خاصة منحهم الروح القدس الذي سيذكِّرهم بكل ما قاله هو لهم (يو 14: 26) ويرشدهم إلى جميع الحق، لاسيما الحق الخاص بأمور آتية (يو 16: 13). ولذلك فليس الرسل أنفسهم هم الذين يشهدون ليسوع، ولكن هو الروح القدس يشهد فيهم ومن خلالهم ليسوع (يو 15: 26، 27). فكما أن الابن جاء ليمجِّد الآب، فإن الروح القدس يأتي ليمجِّد الابن، ولهذه الغاية فإن الروح يأخذ من الابن كل ما يتكلم به وكل ما يفعل (يو 16: 14).

وكان على الرسل أن يقدّموا شهادتهم للمسيح إلى مواطنيهم ومعاصريهم، ليس فقط ممن يعيشون في أورشليم واليهودية والسامرة، بل إلى الخليقة كلها وإلى أقصى الأرض (مت 28: 19، مر 16: 15، أع 1: 8) وأمرُ التكليف بأن يذهبوا إلى العالم أجمع يتضمن الأمر بأن يشهدوا للمسيح كتابيّاً أيضاً، رغم أن الرسل لم يُطلب منهم بكيفية مباشرة أن يفعلوا ذلك. إلا أنه إن كان الوعد الذي جاء لإبراهيم يجب أن يكون حقاً شرعياً لكل البشر في المسيح، فما كان يمكن لذلك أن يتأتى، ما لم يكن مدوّناً كتابة، وبذلك يحفَظ لكل العصور ويوزَّع على كل البشر. ولذلك فإن الروح القدس قاد الرسل في عملهم الكرازي بكيفية كادت تدفعهم تلقائياً إلى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

استخدام القلم، وعن طريق الرسائل والخطابات شهدوا لملء النعمة والحق كما ظهرا في المسيح يسوع. ففي كرازتهم الشفوية، كما في كتاباتهم، كان الهدف الذي رأوه بوضوح هو أن يكشفوا عن الحق الذي أعلنه الله في المسيح وبروحه وعرَفهم به.

يدِّون متى كتاب الميلاد، أي تاريخ المسيح يسوع ابن داود (مت 1: 1). ويتحدث مرقس عن كيف ابتدأ الإنجيل بالمسيح يسوع، حيث نقطةُ الانطلاق (مر 1: 1). ويريد لوقا، عن طريق بحث دقيق وسرد منظَّم، أن يعطي تأكيداً لثاوفيلس بشأن الأمور المتيقنة بين المؤمنين على أساس شهادة الرسل (لو 1: 1 - 4). ويدّون يوحنا إنجيله لنؤمن أن يسوع هو المسيح ابن الله، وليكون لنا، إذا آمنا، حياة باسمه (يو 20: 31)، ويقول في رسالته الأولى أيضاً أنه يعلن ما رآه وما سمعه وما شاهده وما لمسه بيده عن كلمة الحياة. ويفعل هذا لتكون لنا شركة مع الرسل، ومع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (1 يو 1- 3). ولم يكن اقتناع بولس الرسول محصوراً في أن يسوع المسيح بنفسه دعاه ليكون رسولاً (غلا 1: 1)، ولا بأنه تسلم إنجيله منه بإعلان خاص (غلا 1: 12، أف 3: 2؛ 1 تي 1: 12) بل كان مقتنعاً أيضاً بأنه عن طريق الكلمة الشفوية والكلمة المكتوبة كان يعلن كلمة الله (1 تس 2: 13؛ 2 تس 2: 15؛ 3: 14؛ 1 كو 2: 4؛10 – 13؛ 2 كو 2: 17) بل إنه بلغ الدرجة التي قال فيها إن كل من يعظ بإنجيل آخر فليكن ملعوناً (غلا 1: 8) وكما يربط جميع الرسل الحياة الأبدية والموت الأبدي بقبول كرازتهم أو رفضها، هكذا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يهدِّد الرسول يوحنا في الفصل الأخير من رؤياه كل من يضيفون إلى "نبوة هذا الكتاب" أو يحذفون منه بالعقاب الشديد (رؤ 22: 18، 19).

إن نشاط الروح القدس الخاص، الذي عن طريقه تمَّ تدوين الإعلان، يسمي عادة الوحي (2 تي 3: 16). وتُلقى بعض المقارنات المستعارة من الطبيعة، وبعض الإيضاحات المحددة في الكتب المقدسة نفسها، بعض الضوء على طبيعة الوحي. ويصح القول، بصفة عامة، بأن الإنسان يستطيع أن يستوعب أفكار الآخرين في عقله، وأن يسترشد بالآخرين في تفكيره. وعملية التعليم والتربية كلُّها مبنية على هذه المقدرة، وينطبق هذا على كل العلوم، وكل المعارف. ويتم الاتصال الفكري بين شخص وآخر عادة عن طريق وسائل، سواء كانت علامات أو إشارات وكلمات منطوقة أو مكتوبة. وإذ نتأثر بفكر شخص آخر، فنحن نتعمد دراسة هذه الأفكار بدقة، وكثيراً ما يكلِّفنا هذا جهداً كبيراً. وبهذه الوسيلة نحاول أن نجعل آراء الآخرين وأفكارهم جزءاً من حياتنا الروحية الشخصية. إلا أن ظواهر التنويم المغناطيسي والإيحاء وما أشبه، تُثبت أنه دون أي نشاط من جانبنا، يمكن لآراء شخص آخر وأفكاره أن تدخل دائرة وعينا، وأن تُفرَض علينا، وأن تتحكم بإرادتنا وتصرُّفنا. وبهذا يمكن أن يتحول البشر إلى أدوات سلبية، تنفِّذ ببساطة إرادة المنوِّم المغناطيسي. والكتاب المقدس والاختبار يعلّماننا أنه بهذه الكيفية أيضاً يتعرض الإنسان البشري لتأثيرات الرواح الشريرة وقواها، وفي مثل هذه الحالات لا يتحدث المرء ولا يتصرف

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عن نفسه، بل يتحكم الروح الشرير بفكره وسلوكه. ففي (مر 1: 24 مثلاً يتحدث الروح النجس من خلال الإنسان وهو الذي يدرك أن يسوع هو قدوس الله.

وهنالك ظاهرة أخرى يمكن أن تلقي ضوءاً على طبيعة الوحي بالروح القدس، وهو ما نطلق عليه اسم الإلهام الفني. فجميع المفكرين العظماء والشعراء قد علّمتهم الخبرة أنهم مدينون بأفضل وأجمل ما أنتجوا لا لمجهودهم الشخصي، بل لومضات من البصيرة غزت حياتهم فجأة. وطبيعي أن مثل هذا الاختبار لا ينفي الأبحاث السابقة والتأمل. إن العبقرية لا تجعل الجهد والمثابرة لا لزوم لهما.

ومع أن الدرس والتحصيل في مثل هذه الحالات شرط ضروري، كقاعدة عامة، في مثل اختبار هذا النوع من الوحي، فإن استنارة البصيرة التي تتحقق ليست النتيجة المنطقية للدرس أو التحصيل ولا هي ثمرته الناضجة. فهنالك قوة خفية تعمل في العباقرة لا تخضع للحسابات المنطقة. وقد كتب نيتشه إلى أخته عن هذه القوة الخفية فقال: "لا يمكنك أن تتصوري مدى قوة هذه الإلهامات، فهي تملأ المرء بنشوة عارمة في عقله، ويحس المرء وكأنه نقل خارج ذاته بل خرج تماماً عن طوره، فلا يسمع شيئاً، ولا يرى شيئاً، ولا يفعل شيئاً سوى أن يقبل ويأخذ، ويأتيه الفكر وكأنه البرق. ويحدث كل شيء لا إرادياً وكأن كل شيء تحمله إليه عاصفة من الحرية، والاستقلال، والقوة والعمل الإلهي. هذا هو اختباري للوحي أو الإلهام".

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فإن كانت ظواهر من هذا النوع تحدث في حياة النـــاس العاديـــة، ومـــع الفنانين، فيقيناً أنه لا يمكن أن يكون هنالك أساس لمهاجمة فكرة تأثير الله في تفكير خلائقه وإرادتهم. فالله يعمل في خليقته بواسطة روحه الموجود فيهم. (تك 1: 3؛ مز 33: 6؛ مز 104: 30). والإنسان من بين كل الخلائق بصفة خاصة هو الـــذي صنع بنسمة القدير وبروح الله (أي 33: 4؛ مز 139: 1 - 16 والآيات التالية) وبه نحيا ونتحرك (أع 17: 28). وتفكيرنا وإرادتنا وأفعالنا، حتى ونحن نسلك سبيل الخطأ، إنما تحدث تحت سيطرة الله ولا يحدث شيء خارج رأي مشـــيئته (أف 1: 11). وقلب الملك في يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يحوِّله (أم 21: 1) وطرق الإنسان أمام عيني الرب وهو يزن كل سلبه (أم 5: 21؛ 16: 9؛ 19: 21، 21: 2). بكيفية مختلفة تماماً، وفي علاقة أعمق، يسكن الله بروحه في قلوب أولاده. وعن طريق هذا الروح يجعلهم يعترفون بالمسيح ربّاً لهم (1 يو 4: 3)، ويجعلهم يعرفون الأشياء المعطاة لهم من الله (1 كو 2: 12؛ 1 يـــو 2: 20؛ 3: 24؛ 4: 6 - 13)، ويهبهم عطايا الحكمة والمعرفة (1 كو 12: 8)، ويعمل فيهم كي يريـــدوا وأن يعملوا من أجل مسرته (في 2: 13).

واضح أن مختلف تأثيرات روح الله على العالم والكنيسة ليست هي نفسها الوحي الذي جاء للأنبياء والرسل، إلا أنهما على أي حال تصلح كإيضاح وشرح. فإن صح أنه ليس بالكلام فقط بل في حقيقة الواقع أيضاً هنالك ما يمكن أن نسميه سكنى الروح القدس وعمله في كل الخلائق، وإن كان هذا الروح نفسه يسكن في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أبناء الله بكيفية مختلفة خاصة، فلا يكون هنالك أساس مطلقاً لاعتبار ذلك النشاط الخاص الذي نسميه الوحي ضرباً من المستحيل أو أمراً بعيد الاحتمال. إلا أنه من الضروري في الوقت نفسه أن نميّز الفارق بين عمل روح الله في العالم وفي الكنيسة من ناحية، وعمله في الأنبياء والرسل من الناحية الأخرى. ويصبح هذا الفارق واضحاً جداً عندما نقارن (رو 8: 14 مع 2 بط 1: 21). ففي الآية الأولى يقول الرسول بولس "لأن الذين ينقادون بروح الله، فأولئك هم أبناء الله" أما في الآية الثانية فيعلن بطرس الرسول أن رجال الله القديسين، أي الأنبياء، كانوا مسوقين بالروح القدس، وهكذا أتت النبوة. إن قيادة الروح القدس هي نصيب جميع المؤمنين، وتتكون من استنارة العقل، والسيطرة على الإرادة والميول وتوجيهها، وعن طريق هذا التأثير ينال العقل تلك المعرفة والقوة والرغبة لأن يفعل ما يسر الله. إلا أن إرشاد الروح أُعطى للأنبياء والرسل فقط، وقوامه دفْعهُم وتحريضهم وإثارتهم ليصبح إعلان إرادة الله الذي سبق أو وصل إليهم معروفاً عند جميع البشر.

وتزداد الصفة المميزة لهذا الوحي وضوحاً بالصياغة المتكرِّرة في العهد الجديد عند الإشارة إلى العهد القديم وذلك بأن ما قيل في القديم تكلم الله به بواسطة الأنبياء (مت 1: 22؛ 2: 15، 17، 23؛ 3: 3؛ 4: 14 وما أشبه)، حيث تستخدم اللغة اليونانية في هذه الصياغة تعبيراً يحدّد أن الرب هو مصدر ما يقال وأصله، كما يحدِّد أن الأنبياء هم وسائل ما يقال ووسائطه. ويزداد هذا التمييز وضوحاً حيث نقرأ أن الله تكلم بفم أنبيائه (لو 1: 70؛ أع 1: 16، 3: 18؛ 4: 25). والحقيقة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

التي تُعلِّمها الكتب المقدسة في هذا الشأن هي أن الله أو روحه هو فعــلاً النــاطق بكلمته، ولكنه، ليعبِّر عنها. استخدم الأنبياء والرسل بمثابة وكلاء له.

****

إلا أننا نسيء فهم الكتب المقدسة تماماً لو استنتجنا من هذه الإشارات أن الأنبياء والرسل كانوا مجرّد وسائل سلبية، توّقف نشاطهم الذهني والإرادي، وكانوا في يد الروح القدس وكأهم مجرد بوق للتخاطب. فالله في الواقع يكرم خليقته دائماً. ولا يتعامل مطلقاً مع خلائقه العاقلة وكأها غير عاقلة. وبالإضافة إلى ذلك فإن الروح القدس يعارض بوضوح أية فكرة آلية عن الوحي. فمع أن الروح القدس كان "يسوق" أو "يدفع" الأنبياء، إلا أهم هم أنفسهم أيضاً تكلّموا (2 بط 1: 21) ويشار مراراً وتكراراً إلى الكلمات التي دوَّنوها بأها كلماقم (مت 22: 43، 45؛ يو 1: 23؛ 5: 46؛ رو 10: 20 وما أشبه). ونقرأ في أماكن كثيرة أهم هُيِّئوا لهذه الوظيفة، وتم تخصيصهم وتأهيلهم لها (إر 1: 5؛ أع 7: 22؛ غلا 1: 15). وهم يحتفظون بوعيهم الكامل سواء حين يتلقّون الكلمة أو حين يقومون بتدوين الإعلان الإلهي، وإذ يسوقهم الروح القدس فإنه لا يكبت نشاطهم الخاص، بل يسمو به ويزوِّده بالطاقة ويطهِّره. فهم يبحثون بالتدقيق (لو 1: 3)، وهم يتذكرون ويتأملون الإعلان الذي سبق أن وصل إليهم في زمن سابق (يو 14: 26؛ ا يو 1: 1- 3)، ويستخدمون المصادر التاريخية (عد 21: 14؛ يش 10: 13)، وبعضهم،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ككتبة المزامير مثلاً، يجدون مادة ترانيمهم في اختباراتهم الشخصية. وفي كل الكتابات التي يتكوّن منها الكتاب المقدس، فإن استعداد الكاتب الشخصي وتعليمه، ولغته وأسلوبه، هذه كلها تجد تعبيراً عن نفسها عند كل واحد من هؤلاء الكتّاب وعند كل هذا العدد الكبير من الكتّاب. ودراسة الكتب المقدسة تعلّمنا لا عن كلمة الله الواحدة فقط، بل تعرّفنا أيضاً بالأشخاص المختلفين الذين دوَّنوها. وما أعظم الفارق بين أسفار الملوك والأيام، بين إشعياء وإرمياء، بين متى ولوقا، بين يوحنا وبطرس وبولس!

مثل هذه الفكرة التي نقدمها هنا عن الوحي تسمح لنا بأن لا نغمط حق الجانب الإنساني في الكتب المقدسة. فلم يأتِ الكتاب المقدس إلينا كاملاً تامّاً في لحظة من الزمن. لقد نما بالتدريج. والعهد القديم، كما هو بين أيدينا، يتكوَّن من تسعة وثلاثين سفراً: خمسة منها تتعلق بالشريعة، واثنا عشر سفراً تاريخية (من يشوع إلى أستير)، وخمسة شعرية (من أيوب إلى نشيد الأنشاد)، وسبعة عشر سفراً نبوية. ومثل هذا الترتيب ليس بالطبع ترتيباً زمنياً فإن الكثير من الأسفار التاريخية مثل عزرا ونحميا وأستير تاريخها متأخر بالنسبة إلى الكثير من الأسفار الشعرية والنبوية. ومن بين الكتب النبوية، كثير من الأسفار القصيرة مثل يوئيل وعوبديا وعاموس وهوشع أقدم من الأسفار الطويلة، أي إشعياء وإرميا وحزقيال ودانيال. فالترتيب يتبع طبيعة المضمون لا التسلسل التاريخي. وتكوين كل هذه الكتب حدث تدريجيّاً، على مدى قرون طويلة، وسط ظروف متباينة للغاية، وعن طريق جهد أناس مختلفين.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وفي الدراسات اللاهوتية هنالك فرع يركِّز اهتمامه على بحث الظروف التي أحاطت بنشأة كل سفر من أسفار الكتاب المقدس، ومن الذي قام بكتابته، ولمن كتب وما أشبه. وبسبب إساءة استخدام هذا الفرع من الدراسة، اكتسب شهرة سيئة. فلا بد أن نكون قد سمعنا في وقت أو آخر أن "النقد العالي" مزّق بكيفية منتظمة صفحة تلو الأخرى من الكتاب المقدس. إلا أن إساءة استخدام شيء لا يجعل استخدامه الصحيح شراً. فإن كان لنا أن نتفهم الكتب المقدسة ككل وكذلك في أجزائها، فإنه من المهم جداً أن نعرف بالضبط كيف برز الكتاب المقدس إلى الوجود بالتدريج، وتحت أية ظروف نشأ كل سفر. ولا يمكن لمثل هذه المعرفة، على المدى البعيد، إلا أن تفيد تفسير كلمة الله. ونتعلم منها أن وحي الروح القدس تغلغل بعمق وفي اتساع في حياة رجال الله القديسين وفكرهم.

على مدى قرون، أي حتى عصر موسى، لم تكن هنالك كتب مقدسة، ولا سجل مكتوب لكلمة الله. أو يمكننا أن نقول على الأقل أنه لا توجد لدينا معلومات عن مثل هذا السجل. وليس مستحيلاً بالطبع أن تقريراً مكتوباً عن قول معين أو حدث خاص (قول أو حدث كان على جانب كبير من الأهمية لتاريخ الإعلان الخاص) تم وضعُه قبل عصر موسى، ثم أخذه موسى واحتفظ به في كتاباته. ولم يمض وقت طويل على الزمن الذي فيه كانت المناداة بمثل هذه الإمكانية تُعتبر ضرباً من الحماقة. فقد كانوا يفترضون أن فن الكتابة لم يكن معروفاً في عصر موسى. إلا أن الاكتشافات التي تمت في بابل ومصر صحَّحت معلوماتنا، إذ لم تُعلِمنا فقط أن فن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الكتابة كان معروفاً قبل موسى بزمن طويل، بل تأكد لنا الآن أيضاً أن الكتابة كانت مستخدمة على نطاق واسع.

فإننا نعلم عن حوادث وعن شرائع كانت مدونة. وتمت الكتابة قبل موسى بمئات السنين. ولذلك فليس من غير المعقول على الإطلاق أن نقول إن موسى قبل أن يدون كتاباته التاريخية والتشريعية استخدم بعض المصادر التي كانت موجودة من قبله. فهنالك احتمال كبير أن سرد الأحداث الذي نجده في (تك 14) مثلاً يعتمد على تقليد مكتوب.

ولكننا لا نعرف هذا كحقيقة مؤكدة. ولذلك فيمكننا أن نقول بوجه عام إن كلمة الله لم تكن مكتوبة قبل موسى. لقد كانت كلمة الله موجودة طبعاً، لأن الإعلان الخاص بدأ حالاً بعد السقوط، وعلى هذا فقد كان هنالك، بهذا المفهوم، ما يمكن أن نسميه "التعليم المعتمد" أي قاعدة للإيمان والحياة. فلم تكن البشرية في أي وقت من الأوقات من دون كلمة الله. وبصفة دائمة، ومن البداية، كان الإنسان يمتلك، لا الإعلان العام عن الله في الطبيعة وفي الضمير فقط، بل كان عنده أيضاً الإعلان الخاص في الكلمة وفي التاريخ أيضاً. إلا أن كلمة الله هذه لم تدون على الفور، ولكنما استمر تناقلها شفويّاً في العائلات والأجيال يسلّمها الآباء للأبناء. وفي ذلك الزمن القديم، وعندما كان عدد سكان الأرض محدوداً، وعندما كان الناس ما زالوا يتمتعون بنعمة العمر الطويل، وعندما كانت علاقات الدم، والانتماء إلى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الأسرة، وتبجيل الماضي كلُّها تعني أكثر جداً مما تعنيه اليوم، كان أسلوب الاستمرارية هذا كافياً للحفاظ على نقاء كلمة الله وعلى انتشارها.

إلا أنه عندما ابتدأ الناس ينتشرون على وجه الأرض في ما بعد، وعندما سقطوا في شراك الوثنية والخزعبلات، لم يعد التقليد الشفاهي كافياً. وكان موسى أول من قام بتدوين كلمة الله. ولربما كانت هنالك روايات مدوَنة من قبله، أخذها وضمَّنها كتاباتِه. وإن لم نكن على يقين من ذلك، كما سبقت الإشارة. فإن احتمال حدوثها يتزايد عندما نأخذ في الاعتبار أن الإشارة في ما يسمى أسفار موسى الخمسة لأي كتابة تمت علي يد موسى لا ترد إلا في فقرات قليلة جداً. ولذلك فمن الممكن جداً أن أجزاء مختلفة من أسفار موسى الخمسة كانت موجودة جزئياً قبل أيامه وأن موسى نفسه قام بتنقيحها، أو كلف آخرين للقيام بذلك، أو أن بعض هذه الكتابات قد تم تحريره بنفس روح موسى وطريقته، في وقت لاحق بعد موت موسى، وتمت إضافته إلى الأجزاء القائمة. والاحتمال المشار إليه أخيراً هنا كان مقبولاً بصفة عامة قبل اليوم في ما يتعلق بالقصة الخاصة بموت موسى (تث 34). إلا أن هذه الفكرة يجب أن تشمل أيضاً الأجزاء الملحقة وما يشبهها كما نجد في (تك 12: 6 الجزء الثاني من الآية)، (13: 7؛ 36: 31 الجزء الثاني من الآية) وما أشبه. وهذا لا يجرد الكلمة من سلطانها الإلهي، كما أنها إمكانية لا تتعارض مع التعبير الكتابي المتكرر:

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الناموس أو كتاب موسى [1] فأسفار موسى الخمسة تظل هي كتاب (أو ناموس موسى، مع أن موسى اشتق بعض الأجزاء من مصادر أخرى، أو دوَّنه مساعدوه بتكليف منه، أو قام "بتحريرها" بنفس روحه بعض من جاءوا بعده. وكقاعدة عامة، لم يدون بولس الرسول رسائله بنفسه، بل سطّرها أياد أخرى (1 كو 16: 21). ويُنسب سفر المزامير أحياناً بجملته لداود لأنه هو مؤسس فكرة المزامير، مع أن بعض المزامير لم يكتبها داود ولكنما ألفها آخرون.

****

وعلى أساس فكرة إعطاء الناموس لموسى، أي على أساس عهد الله الذي أبرمه مع الآباء وثبّته لإسرائيل في سيناء ورسمه في ناموس موسى، ظهر في تاريخ إسرائيل المتأخِّر، بقيادة الروح القدس، أدب مقدَّس ثلاثي: المزامير، والنبوة، وكتب "الحكمة". واقترنت عطايا الروح القدس الخاصة هذه بالمواهب الطبيعية التي يتميز بها الجنس السامي وبصفة خاصة شعب إسرائيل. إلا أن الكتّاب تجاوزوا هذه المواهب الطبيعية، وعهد إليهم بمهمة خاصة في خدمة ملكوت الله، ولخير البشرية جمعاء.

---

(4) 1 مل 2: 3؛ 2 مل 14: 6؛ مل 4: 4؛ مر 12: 26؛ لـو 24: 27، 44؛ يـو 5: 46، 47.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تبدأ النبوة بإبراهيم[1] ويواصل يعقوب[2] وموسى[3] ومريم[4] القيام بها، وقد اكتملت بصفة خاصة في صموئيل وما بعده، وتلازم تاريخ إسرائيل لفترة طويلة بعد السبي. وتنقسم كتب الأنبياء في العهد القديم العبري إلى قسمين كبيرين: الأنبياء "المبكرين: والأنبياء "المتأخرين". والمجموعة الأولى تشمل كتب يشوع، القضاة، وصموئيل، والملوك، والسبب في تسمية هذه الكتب بأنها مبكرة إن كتبتها أنبياء، وتتحدث عن أنبياء، يسبقون أنبياء الكتب المقدسة المتأخرين.

وبمعنى آخر، فقد كان هنالك عدد كبير من الأنبياء في إسرائيل يزيد عن الأربعة الكبار والإثني عشر الصغار الذين حُفِظت كتبهم بين ضفتي الكتاب المقدس. والكتب التاريخية المشَار إليها مليئة بأسماء الأنبياء وتشمل أحياناً وصفاً مستفيضاً لأنشطتهم. فهي تتحدث عن دبورة، وصموئيل، وجاد، وناثان، وأخيا، وشمعيا، وعزريا، وحناني وياهو بن حناني وإيليا، وأليشع، وخُلدة، وزكريا لأول شهيد من الأنبياء في مملكة يهوذا وعن كثير غيرهم، بعضهم لا يذكر بالاسم (2 أي 25 على سبيل المثال) و لم يصل إلينا شيء مكتوب بقلم هؤلاء. بل إننا نقرأ أحياناً عن مدارس الأنبياء (1صم 10: 5 - 12؛ 19: 19 والآيات التالية، 2 مل 2: 2، 3، 5؛

---

(5) تك 18: 17؛ 20: 7 قارن أيضاً عا 3: 7؛ مز 105: 15.

(6) تك 49.

(7) عد 11: 25؛ تث 18: 18؛ 34: 10؛ هو 12: 13.

(8) خر 15: 20؛ عد 12: 2.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

4: 38، 43؛ 6: 1) حيث انشغل كثير من أبناء الأنبياء أو تلاميذهم بالتدريبات الروحية والمسؤوليات الثيوقراطية. وهنالك احتمال كبير أن تكون كتابات الأنبياء التاريخية من إنتاج هذه المدارس، وهذا بالطبع في بعض الكتب مثل يشوع والقضاة وما أشبه. وفي سفري أخبار الأيام بصفة خاصة إشاراتٌ متعدِّدة إلى كتابات تاريخية بقلم الأنبياء (1 أي 29: 29، 2 أي 9: 29؛ 20: 34 وما أشبه).

والأنبياء الذين توصف أنشطتهم في الكتب التاريخية، كثيراً ما يوصفون في عصرنا الحاضر بأهم أنبياء في الأعمال، لنميّز بينهم وبين الأنبياء المتأخرين في الأقوال. وهذا التمييز لا يجوز إلا متى تذكرنا أن جميع الأنبياء، المبكرين منهم والمتأخرين على السواء، كانوا أنبياء الكلمة. فكلّهم تكلم وكلمهم قدم شهادته. وهنالك احتمال كبير أن الأصل العبري يشير إلى ذلك (خر 4: 16؛ 7: 1). والصفات الأساسية لتعليم الأنبياء كانت موجودة من قبل في شهادة أقدم الأنبياء. وهنالك ناحيتان يختلف فيهما الأنبياء المبكرون عن الأنبياء المتأخرين. فهم أولاً يقصرون تفكيرهم وحديثهم على مقتضيات الأمور الداخلية لشعب إسرائيل، فلا تدخل الشعوب الأخرى نطاق التفاهم. ثم إنهم ثانياً ينشغلون بالحاضر لا بالمستقبل. فتحذيراتهم وإنذاراتهم لها هدف عملي مباشر. إنها الفترة التي كان فيها الأمل ما زال يراودهم بأن إسرائيل سوف يحافظ على عهد الله ويسير في طرقه، وذلك في أثناء حكم الملك داود والملك سليمان وبعد ذلك بقليل.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلا أنه، في القرن التاسع قبل الميلاد، عندما ابتدأ إسرائيل ينشغل تدريجياً بالسياسات الخارجية للشعوب المحيطة بهن وعلى الرغم من دعوته وهدف حياته انغمس في تلك السياسات، عندئذٍ أدخل الأنبياء تلك الشعوب دائرة اهتمامهم، وأصبحوا لا يتوقعون إتمام وعد الله في الحاضر وفيه وما فيه من الارتداد. ولذلك كانوا ينتظرون أن يتم ذلك بمجيء المسيا في المستقبل، ذلك المستقبل الذي يجب أن يحقق الله مجيئه. وإذ تطلع هؤلاء الأنبياء من أبراج مراقبتهم إلى الأرض كلها بطولها وعرضها، وأشاروا إلى علامات الأزمنة، لا كمن يقرأونها بأنفسهم، ولكن طبقاً لنور الروح القدس (1 بط 1: 4؛ 2 بط 2: 20، 21) وهم يقوِّمون الحالة في إسرائيل سواء من الناحية الدينية أو الأخلاقية أو السياسية أو الاجتماعية، وكذلك علاقة إسرائيل بالشعوب الأخرى مثل أدوم وموآب وأشور وبلاد الكلدان ومصر، يقوِّمون ذلك كله ويفحصونه على محك العهد المركزي الذي يقف فيه يهوه مقابل شعبه. وتجدهم جميعاً، كل واحد بحسب طبيعته وعصره وطريقته الخاصة، يقدمون في الواقع كلمة الله الواحدة بعينها. فهم يعلنون خطية إسرائيل وعقاب الله للخطية، وهم يشجعون شعب الرب على اساس عدم تغير عهده، والوعد بأمانته وغفران كل خطاياهم، ويوجهون كل الأبصار إلى المستقبل البهيج الذي سيمتد فيه سلطان الله على إسرائيل وعلى كل الشعوب وذلك تحت حكم ملكٍ من بيت داود.

ولذلك فالكلمة التي يعظون بها باسم الله يصبح لها مدلول يتخطى العصر الذي تكلموا فيه برسالتهم. فلم تعد تلك الكلمة محدودة، في نطاقها، وفي هدفها،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بإسرائيل الأيام القديمة، بل عوضاً عن ذلك لها مضمون وتأثير يمتـدان أقصـى إلى الأرض، ولا يمكن أن تتحقق إلا في البشرية نفسها. آنذاك يتمُ تدوين كلمة النبوة. فمن القرن التاسع قبل الميلاد فصاعداً، أي منذ أيام يوئيل وعوبديا، يبدأ الأنبياء في تدوين مضمون نبواهم وأحياناً بتكليف واضح من الله (إش 8: 1؛ حب 2: 2، إش 36: 3) وهم يفعلون هذا لغرض واضح يعبرون عنه، وذلك حتى تبقى كلمتهم إلى آخر الأيام وإلى الأبد (إش 30: 8)، وتعترف الأجيال المتعاقبة بأصالة نبـواهم وصحتها (إش 34: 16).

****

ويسير أدب المزامير في خط مواز لكتابات الأنبياء. وهو أيضاً قديم العهد. لقد أحب إسرائيل الأغاني والموسيقى جداً. وقد حُفِظت لنا في الكتـب التاريخيـة تسابيح مخصصة لموضوعات مختلفة. فهنالك أغنية السيف (تـك 4: 23، 24)، وأنشودة البئر (عد 21: 17، 18)، وأنشودة غزو حشبون (عـد 21: 27 - 30)، وترنيمة عبور البحر الأحمر (خر 15)، وترنيمة موسى (تث 32) وأغنيـة دبورة (قض 5)، وترنيمة حنة (1 صم 2)، ورثاء لشاول ويوناثان عند موهما (2 صم 1)، ورثاؤه لأبنير (2 صم 3: 33، 34)، وسفر ياشر (يـش 10: 13؛ 2 صم 1: 18) الذي يبدو أنه احتوى على أغان كثيرة. بالإضافة إلى ذلك، فإننا نقابل أناشيد كثيرة في كتابات الأنبياء. فمثلاً نشيد الكرم في (إش 5)، والأغنية التي تسخر

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بسقوط ملك بابل في (إش 14)، ومزمور حزقيا في (إش 38)، وصلاة يونان في (يونان 2)، وأغنية الشكر لحبقوق وغيرها. وكثير من هذه الأغاني والأناشيد على صلة وثيقة بالمزامير، حتى إن التحوُّل من واحد إلى الآخر لا يكاد يلحظ. كما أن هنالك علاقة وثيقة أيضاً بين أدب المزامير والكتابات النبوية. ونلاحظ هذا حتى من جهة الشكل: فكلاهما يأتي نتيجة وحي الروح القدس القوي، وكلاهما يضع عالم الطبيعة والتاريخ كله ضمن نطاق رؤيته، وكلاهما ينظر إلى الأشياء كافةً في نور كلمة الله، وكلاهما يصدر عن إعلان ملكوت المسيا، وكلاهما يستخدم لغة الشعر وصياغته. وعندما يجد كاتب المزامير نفسه داخل نطاق أسرار إرادة الله ومشورته يصبح رائياً، وعندما تنعش مواعيد الله روح النبي يسمو إلى المستوى الشعري (1 أي 25: 1 - 3) ولقد دعى آساف رائياً (2 أي 29: 30)، كما دعى داود نبياً (أع 2: 30).

إلا أن هنالك بطبيعة الحال فارقاً بين الاثنين. لقد هيأت أغنية مريم، ونشيد موسى (تث 32) ومزمور موسى (مز 90) الجو للمزامير، إلا أن المزامير أزهرت بعد نهضة عبادة الرب بقيادة صموئيل، وذلك في مزامير داود، مرنم إسرائيل الحلو (2 صم 23: 1). ومزامير داود تشكل الصور الأساسية التي على أساسها استُخدمت المزامير في ما عد سواء في أيام سليمان أو يهوشافاط أو حزقيا، وخلال فترة السبي وما بعدها. وفي نهاية (مزمور 72) توصف كل مزامير داود بأنها صلوات. وهذه هي الصفة المميِّزة لكل المزامير، وإن كان بينها تباين كبير. فبعضها تسابيح حمد وشكر،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وبعضها تعبير عن الشكوى والتوسلات، وبعضها له صفة الترانيم وبعضها الآخر كأنه قصائد رثاء، بينما نجد مزامير أخرى نبوية تعليمية. وبعض المزامير يتغنى بأعمال الله في الطبيعة، ومزامير أخرى تتغنى بأعماله في التاريخ. وتعالج المزامير الماضي، والحاضر، وفي أحيان كثيرة المستقبل أيضاً. إلا أننا نجد دائماً عنصر الصلاة في تكوينها، وكلها تتميز بذلك. فإن كان الروح القدس، في حالة الكتابات النبوية، يمسك بحياة إنسان فيسيطر عليه ويحرِّكه، فإن هذا الروح بالذات يقود الشاعر في حال كتابة المزامير إلى أعماق حياته الروحية. والحال الروحي الشخصي يشكِّل دائماً مناسبة أنشودته. إلا أن حال النفس هذا يشكله ويكوّنه دائماً روح الرب.

وما كان لداود لأن يكون مرنم إسرائيل الحلو لو لم تكن له تلك الشخصية المتميزة والحياة الغنية بالاختبار. وكان حال ذهنه أو بالأحرى حال نفسه وما اعتراه من حزن وقلق، وتجارب ودوافع، والاضطهاد والنجاة، وغير ذلك من اختبارات، كلُّها كانت بمثابة الأوتار التي عزف عليها أنغام كلام الله وأعماله في الطبيعة والتاريخ، وفي المؤسسات وفي الوعظ، وفي الدينونة والفداء. فهي توافق النغمات بين إعلان الله الموضوعي وقيادته الذاتية التي نسمع صوتها في التراتيل، والتي ترنم في حضرة الله وقد تكرست لمجده، داعية الخليقة كلها لتشترك في التسبيح بحمده، والتي تتردد أصداؤها إلى أن يشترك فيها كل من في السماء والأرض، وبذلك فهي أعمق تعبير لكل ما أحست به البشرية على مدى العصور والأجيال. وتعلمنا المزامير أن نعبر عما تجيش به صدورنا بشأن إعلان الله ذاته في المسيح عن طريق الروح القدس.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولأهمية هذه المزامير فلم ينطق بها المرنم فحسب،بل أصبحت أيضاً على لسان الكنيسة في جميع العصور.

****

ويجب أن نضيف إلى الكتابات النبوية وإلى المزامير كتابات الحكمة أي فن الأمثال، أو أدب الحكمة. ونجد أساس هذه أيضاً في المواهب الطبيعية، كما يبدو واضحاً في المثل الخيالي الذي رواه يوثام (قض 9: 7 والآيات التالية)، ولغز شمشون (قض 14: 14)، والمثل الذي رواه ناثان النبي (2 صم 12)، وسلوك المرأة التقوعية (2 صم 14) وما إلى ذلك. إلا أن أدب الحكمة هذا اكتسب على يد سليمان، خصوصيته المتميزة (1 مل 4: 29 - 34)، واستمر في أمثال غيره من الحكماء (أم 22: 17 والآيات التالية) وفي سفر أيوب، والجامعة، ونشيد الأنشاد وهكذا إلى ما بعد السبي. وبينما تعلن أسفار النبوة إرادة الله كما تظهر في تاريخ إسرائيل وغيره من الشعوب، وتعبّر المزامير عن صدى تنفيذ إرادة الله في نفوس قديسيه، يربط أدب الحكمة أو الأمثال بين إرادة الله والحياة العملية أو السلوك. ويتأسس أدب الحكمة أيضاً على الإعلان الإلهي، ونقطة الانطلاق بالنسبة إليه هي أن بدء الحكمة مخافة الله (أم 1: 7). إلا أن هذا النوع من الأدب لا يربط بين ذلك الإعلان وتاريخ الشعوب، أو الاختبار الذاتي للنفس، بل إنه بالأحرى ينطبق على الحياة اليومية العادية، حياة الرجال والنساء، الآباء والأبناء، الصداقة والمجتمع،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الأعمال والمهن المختلفة. فهذه الكتابات لا تعمل على مستوى النبوة العالي كما أنها لا تنظر بعين النبوة البعيدة، ولا تستكشف الأمور بعمق الكتابات الشعرية. بل تهتم بصروف الحياة المتقلبة، كالاختبارات التي يتعرض الناس تحت ضغطها لأن يستسلموا في يأس، فترتفع بهم ثانية فوق مستوى هذه الاختبارات. وتحقق ذلك بالإيمان في صلاح عناية الله. وبذلك يكتسب أدب الحكمة معنىً إنسانياً عاماً، يُحفظ على مدى العصور بقيادة الروح القدس.

فالإعلان الإلهي الظاهر في الناموس المعبر عن إرادة الله، هذا الإعلان الموجود أساساً في أسفار موسى، يُستكمَل في أيام العهد القديم في وعظ الأنبياء، وترانيم المرنمين وحكم الحكماء. وكأنما النبي هو الرأس، والمرنم هو القلب، والحكيم هو اليد.

وبهذه الصورة حققت الوظائف النبوية والكهنوتية والملوكية عملها في العهد القديم. وفي المسيح أصبح كنز الكتب المقدسة الذي لا يقدر بثمن ملكاً عاماً للجميع في أنحاء العالم كافةً.

****

وكما يبلغ الوعد ذروته عندما يتحقق، فإن كتابات العهد القديم المقدّسة تبلغ ذروتها في العهد الجديد، فلا يكتمل الواحد بدون الآخر. فالقديم لا يُعلَن إلا في الجديد، ولبُّ العهد الجديد وجوهره متضمن مسبقاً في العهد القديم. والعلاقة بينهما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تشبه العلاقة بين قاعدة التمثال والتمثال نفسه، بين القفل والمفتاح، بين ظل الجسم والجسم نفسه. وتعريف العهدين القديم والجديد بهذه التسمية كان يشير أولاً إلى تدبيري عهد النعمة اللذين أعطاهما الله لشعبه قبل المسيح وبعده. ثم تحول استخدام هذين التعبيرين للإشارة إلى مجموعتي الكتابات اللتين تتضمنان وصف تدبيري العهد هذين وشرحهما. وفي (خر 24: 7) نجد أن الناموس الذي كان إعلاناً لعهد الله مع إسرائيل أو نطقاً به يسمَّى كتاب العهد (قارن 2 مل 23: 2). وفي (2 كو 3: 14) يتحدث بولس الرسول عن قراءة العهد القديم، وطبيعي أن الإشارة هنا هي إلى كتابات هذا العهد. وتمشياً مع هذه الأمثلة أُستخدمت الكلمة "عهد" شيئاً فشيئاً للكتابات أو الكتب المتضمنة في الكتاب المقدس التي تشرح تدبيري النعمة القديم والجديد.

وكما يتكون العهد القديم من عدة كتب، فكذلك العهد الجديد. فهو يشتمل على خمسة كتب تاريخية (الأناجيل الربعة وأعمال الرسل) وواحد وعشرين كتاباً عقائدياً (رسائل الرسل وخطاباتهم) كتاب نبوي واحد (رؤيا يوحنا). ومع أن كتب العهد القديم التسعة والثلاثين كُتبت خلال فترة تزيد على الألف عام، فإن كل كتابات العهد الجديد كُتبت خلال النصف الثاني من القرن الأول الميلادي.

وتحتل الأناجيل المكان الأول في العهد الجديد. ومرة أخرى نجد الترتيب مادياً لا تاريخياً. ومع أن الكثير من رسائل كُتب قبل تدوين الأناجيل، فالأناجيل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وضعت أولاً لأنها تتحدث عن شخص المسيح وعمله، وهي أساس مجهودات الرسل التالية كلها. والكلمة "إنجيل" كان لها في البداية معنى مختلف تماماً، وهو بصفة عامة الخبر الطيِّب أو السار. وفي أيام العهد الجديد أصبحت الكلمة تُستخدم عن الأخبار السارة التي أعلنها المسيح (مر 1: 1) ولم يستخدم كُتَاب الكنيسة أمثال أغناطيوس، وجستنيان وغيرهما الكلمة "إنجيل" بمعنى الكتب أو السجلات المدون فيها رسالة المسيح المفرحة إلا في وقت لاحق.

يضم العهد الجديد أربعة أناجيل لا تشمل طبعاً أربعة أخبار سارة مختلفة، فهنالك إنجيل واحد، إنجيل يسوع المسيح (مر 1: 1، غلا 1: 6 - 8). إلا أن هذا الإنجيل الواحد، هذا الخبر السار الواحد بشأن الخلاص، يُقدَّم بطرق أربعة مختلفة، بواسطة أربعة أشخاص مختلفين، من أربعة وجهات نظر مختلفة، وبأربعة أشكال مختلفة. وهذا يبدو واضحاً عندما نقول الإنجيل كما دونه متى، أو كما دونه مرقس وما أشبه. والفكرة هي أن الأناجيل الأربعة تصف الإنجيل الواحد، والصورة الواحدة لشخص المسيح وعمله، من نواح مختلفة. ولذلك قارنت الكنيسة في العصور المبكرة الأناجيل الربعة بالكائنات الحية (الحيوانات) الأربعة في (سفر الرؤيا 4: 7). فمتى يمثل الإنسان، ومرقس يمثل الأسد، ولوقا يمثل العجل، ويوحنا يمثل النسر. وقد فعلوا هذا انطلاقاً من أن الإنجيلي الأول يصف المسيح كما هو في ظهوره الإنساني، والثاني في دوره النبوي، والثالث في دوره الكهنوتي، والرابع في طبيعته الإلهية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ومتى، الذي هو أيضاً لاوي العشار لذي اختاره المسيح ليكون رسولاً (مت 9: 9؛ مر 2: 14، لو 5: 27)، كتب إنجيله أساساً، كما يقول إيريناوس، باللغة الآرامية وفي فلسطين حوالي عام 62 م. وبصفة خاصة إلى اليهود، لاسيما يهود فلسطين المتنصِّرين، ليبين لهم أن يسوع كان فعلاً المسيح وأن نبوات العهد القديم كلَّها تحقَّقت فيه (مت 1: 1).

وكان مرقس ابن مريم (أع 12: 12) التي يرجَّح أنها كانت تمتلك بيتاً في أورشليم (أع 1: 13، 2: 2). وقد كان مرقس في البداية في خدمة بولس ثم بعد ذلك في خدمة بطرس (1 بط 5: 13). ويقول التقليد إن المسيحيين في روما دعوه ليروي ما يتعلق ببدء إنجيل يسوع المسيح (مر 1: 1). ويقال إن الدعوة قُدِّمت إليه لأنه أقام في أورشليم وتنقل مع بطرس، ولذلك كان ملماً تماماً بالموضوع. ومن المعتقد أن استجاب لدعوة روما حوالي سنة 64 -67م.

ولوقا، الطبيب الحبيب، كما يسميه بولس الرسول (كو 4: 14)، ربما كان من أنطاكية. وكان منتمياً إلى الكنيسة في ذلك المكان منذ وقت مبكر حوالي عام 40 م. وكان رفيق بولس في رحلاته وشريكه في الخدمة، وظلَّ مخلصاً له إلى النهاية (2 تي 4: 11) وقد سطّر كتاباً تاريخياً لا يَشمل حياة المسيح وعمله فقط (في إنجيله) بل بدء انتشار المسيحية أيضاً في فلسطين، وآسيا الصغرى، وبلاد اليونان، وروما (في سفر أعمال الرسل). والكتاب الثاني كتبه حوالي سنة 70 – 74 ك

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ووجهه إلى شخص ثاوفيلس كان يشغل مكاناً مرموقاً في المجتمع، وكــان شــغوفاً بالإنجيل.

ترتبط هذه الأناجيل الثلاثة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، وتُبنى على أساس التقاليد التي كانت متداولة بين التلاميذ بشأن تعاليم المسيح وحياته. أما الإنجيل الرابع فهو من نوع مختلف. فيوحنا، التلميذ الذي كان يسوع يحبه، بقي في أورشليم بعد صعود المسيح. وكان مع يعقوب وبطرس أحد أعمدة الكنيسة الثلاثة (غلا 2: 9)، ثم غادر أورشليم، وقرب أواخر حياته وصل إلى أفسس خلفاً لبولس. ومن هناك نُفي في عهد الإمبراطور دوميتيان إلى جزيرة بطمس ما بين 95، 96 م ومات شهيداً في عام 100 م، لم يكن يوحنا بالرجل الذي يقوم بأعمال تبشيرية، ولم يؤسس كنائس جديدة، ولكنه كان يسهم في الحفاظ على الكنائس القائمة عن طريق معرفة نقيــة للحق. وتغيرت الظروف المحيطة بالكنيسة تدريجياً قرب نهاية القرن الأول الميلادي. فقد انتهى الصراع حول علاقة الكنيسة المسيحية بإسرائيل والنــاموس والختــان. واتخذت الكنيسة موقفاً مستقلاً في ما يتعلق باليهود وكانت تتغلغل أكثر فأكثر في العالم اليوناني الروماني. وهنا اتصلت بتيارات روحية أخــرى، وبصــفة خاصــة بالغنوسية. وبذلك أصبح هدف يوحنا أن يقود الكنيسة بسلام عبر مخــاطر العــالم المقاوم للكنيسة. ومن الانحراف نحو إنكار تجسد الكلمة (1 يو 2: 22؛ 4: 3). وفي كل كتابات يوحنا والتي دونها في ما بين عامي 80، 95 م يقدِّم في مواجهــة هذا الاتجاه المناهض للمسيحية الصورة الكاملة للمسيح بوصفه الكلمة الذي صــار

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

جسداً. فيبين يوحنا في إنجيله أن هذا ما كان عليه المسيح إبان حياته على الأرض، كما يبين في رسائله أن المسيح ما زال هو الكلمة المتجسد في الكنيسة الآن. وفي سفر الرؤيا يوضح أن هذا ما سيكون عليه المسيح في المستقبل أيضاً.

وكتابات العهد الجديد التي أشرنا إليها حتى الآن إنما دفعت إلى كتابتها بإرشاد الروح القدس مناسبات تاريخية محددة. وينطبق هذا أيضاً على كتابات بولس وبطرس ويعقوب ويهوذا. فبعد صعود المسيح، وبعد اضطهاد الكنيسة في أورشليم، لم يقم الرسل بالكرازة بالإنجيل لليهود والأمم فحسب، بل ظلوا مع رعايا الكنائس التي أسسوها في شركة معهم وزيارات شخصية لهم. وكانت تصلهم تقارير شفوية أو مكتوبة عن الحالة الروحية لتلك الكنائس، وكانوا يهتمون بنموها، ويحملون إهتمامات الكنائس كلها في قلوبهم الرسولية (2 كو 11: 28). ولذلك كانوا يحسون بأنهم مدعوون، ما أمكن ، لزيارة جميع الكنائس شخصيّاً، أما إن لم يتيسر ذلك فإنهم يكتبون الرسائل والخطابات لتحذير الكنائس وتعزيتها طبقاً لاحتياجاتها، فكانوا ينذرونهم ويشجعونهم بكل هذه الوسائل لعلهم يقودونهم إلى التعمق في الحق الذي للخلاص.

وكما كان عملهم الرسولي بصفة عامة، كذلك كان جهدهم في الكتابة، وهو بجملته يكون عنصراً تاريخيّاً عضويّاً جوهريّاً في ذلك العمل الرسولي وقد كان رسولياً وقد كان ضرورياً إذ وضع حجر الأساس للكنيسة المسيحية، فالأناجيل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ورسائل الرسل كانت ككتابات الأنبياء كتابات ترتبط بمناسبات خاصة. إلا أنها تجاوز حدود الزمن والاهتمامات المحلية لكنائس في ذلك العصر، متوجِّهةً إلى الكنيسة على مر العصور.

إن لكل الكتابات المقدسة جذوراً تاريخية، إلا أنها جميعاً، كما قال أوغسطينوس تمثِّل رسالة من الله يرسلها من السماء إلى كنيسته على الأرض. وعلى ذلك فإننا لا نعتبر أن "البحث التاريخي" عن تكوين أسفار الكتاب المقدس – ما عدا إساءة استخدام مثل هذه الدراسة – أمر يتعارض مع الطبيعة الإلهية للكتب المقدسة، بل نرى أن هذه الدراسة تلائم بكيفية متميزة كيف نتعلم عن الطرق العجيبة التي حقق الله بها عمله الغني هذا.

****

طبيعي أن هذه اللمحة عن أصل أسفار الكتاب المقدس لا تستنفذ دراسة الكتاب المقدس، ولكنها مجرد بداية. وقد نمت بالتدريج مجموعة كبيرة من العلوم حول الكتاب المقدس، وهدفها جميعاً مزيد من فهم الكتب المقدسة. ويكفي أن نشير إلى هذه الدراسات في عبارة موجزة.

فنقول أولاً إننا نعلم أنه بالإضافة إلى الكيفية المتميزة التي نشأ بها كل سفر من أسفار الكتاب المقدس، فإنه بمرور الزمن أخذ موقعه بين المجموعة المكوِّنة لأسفار

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الكتاب المقدس القانونية، وهي قائمة بمجموعة الكتابات التي تشكل قاعدة لإيمان والحياة. وفكرة جمع الكتابات هذه نجدها حتى في إطار سفر واحد. فقد كتب سفري المزامير والأمثال أشخاص مختلفون تم جمع كتاباتهم بالتدريج. ثم جمعت كل الأسفار في ما بعد في كتاب واحد هو الكتاب المقدس. وينبغي ألا نعتبر أن الكنيسة هي التي أوجدت مجموعة الأسفار القانونية، أو أسبغت السلطة القانونية إلى كتابات الأنبياء والرسل. فإن هذه الكتابات في حقيقة الواقع منذ تدوينها، كان لها فوراً سلطانها في الكنيسة واستُخدِمت كقانون ينظِّم الحياة والإيمان. فكلمة الله التي لم تكن مكتوبة في البداية ثم تم تدوينها، لا تستمد سلطتها من البشر، ولا حتى من سلطة جماعة المؤمنين، بل من الله الذي يسهر عليها ويستدعي الاعتراف بها.

وعندما تزايد عدد كتابات الأنبياء والرسل في ما بعد، وعندما ظهرت بعض الكتابات التي لم يسطِّرها أنبياء، ولا رسل جنباً إلى جنب معها، ولكنما زعم بعضٌ أنهم كتبوها، وقبلها قومٌ وكأن لها هذه الصفة، عندئذ أصبح لزاماً على الكنيسة أن تميز بين الأسفار القانونية الحقيقية والكتابات المزيفة، المزعومة والأبوكريفية والمنسوبة إلى غير كتَّابها الحقيقيين، وأن تضع قائمة بالكتب الحقيقية. وقد تم هذا قبل مولد المسيح بالنسبة إلى كتب العهد القديم، وفي القرن الرابع الميلادي بالنسبة إلى العهد الجديد. وهنالك دراسات مختصة تتناول هذا الموضوع بالبحث وتلقي الأضواء على قانونية أسفار الكتاب المقدس.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وتجدر الملاحظة ثانياً أن المخطوطات الأصلية التي سطرها الأنبياء والرسل أنفسهم، قد فُقدت جميعاً بلا استثناء. وليس لدينا سوى ما نسخ عنها. وأقدم هذه بالنسبة إلى العهد القديم تعود بنا إلى القرنين التاسع والعاشر، وبالنسبة إلى العهد الجديد إلى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد. وبعبارة أخرى فإنَّ قروناً كثيرة تفصل بين المخطوطات الأصلية والمخطوطات التي نقلت عنها والموجودة عندنا *. وقد واجه النص خلال هذهالحقبة صروف الزمن مما أدى إلى تغييرات معينة طفيفة أو كبيرة. فعلى سبيل المثال – ونحن نقدِّم هنا مثلاً واحداً في هذا الموضوع المتشعب – لم تكن هنالك حركات أو علامات ترقيم في المخطوطات العبرية الأصلية، ولكنها أُدخلت بعد ذلك بقرون. وتقسيم الكتب إلى فصول كما هي بين أيدينا اليوم. لم يتم إلا في القرن الثالث عشر الميلادي، وتقسيم الآيات في القرن السادس عشر. ولهذا، وبسبب اعتبارات مماثلة، كان من الضروري أن يكون هنالك علم خاص يستخدم كل الوسائل التي تساعد على بلوغ النص الأصلي ليُستخدم أساساً للتفسير.

وينبغي أن نلاحظ ثالثاً أن العهد القديم كُتب بالعبرية وأن العهد الجديد كُتب باليونانية. وبمجرد أن تم توزيع هذه الكتب على الناس لم يفهموا هاتين اللغتين، أصبحت ترجمة هذه الكتب أمراً ضرورياً. وكانت بداية ذلك في القرن الثالث قبل

*** بعد أن دوّن الكاتب الكلمات أعلاه تم اكتشاف مخطوطات قمران التي نجد فيها أجزاء من العهد القديم تعود بنا إلى ما قبل القرن الأول الميلادي وكذلك أجزاء من إنجيل يوحنا تعود بنا إلى حوالي سنة 140 ميلادية، وغير ذلك من مخطوطات (المترجم).**

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الميلاد عندما تُرجم العهد القديم إلى اليونانية. ثم تُرجم بعد ذلك العهدان القديم والجديد إلى لغات كثيرة قديمة، ثم إلى لغات حديثة كثيرة. وبعد نهضة العمل الكرازي بين الوثنيين في القرن التاسع عشر، دب نشاط كبير في عمل الترجمة، والكتب المقدسة موجودة اليوم بكاملها، أو بأحد أجزائها، في أكثر من أربعمائة لغة* ودراسة هذه الترجمات ، لاسيما القديمة منها، على جنب كبير من الأهمية لبلوغ فهم صحيح للكتب المقدسة. لأن كل ترجمة هي في الواقع تفسير.

ونرى رابعاً وأخيراً أن هنالك عناية كبيرة وجهداً كبيراً يبذلان في تفسير الكتاب المقدس. ولقد استمر هذا من أيام اليهود القدامى عبر القرون وهو في تزايد في عصرنا هذا. ومع أن لكل مفسر وجهة نظره الخاصة، وأن تفسيرات كثيرة كانت منحازة، فإن تاريخ تفسير الكتاب المقدس يشير إلى تقدُّم ملحوظ ساهم فيه كل قرن من القرون بنصيب خاص. فإننا نرى في نهاية المطاف أن الله نفسه غالباً عن طريق الأخطاء البشرية هو الذي يحفظ كلمته ويعطي لأفكاره أن تنتصر على حكمة العالم.

---

* **بلغت الترجمات حتى آخر 1985 ما هو أكثر من ذلك بكثير (1780 لغة ولهجة).**

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثامن

الكتاب المقدس وإقرار الإيمان

لم تُوجَد في عصر الرسل ولا في العصر الذي تلاه اختلافاتٌ حول جـوهر المسيحية وعلاقتها باليهود وبغير اليهود. ولذلك فلا يوجد ما هو أجدر بالملاحظة من ذلك الإجماع الذي به قُبِلَ الكتاب المقدس في كل الكنيسة المسيحية باعتباره كلمة الله.

يصدق هذا أولاً على العهد القديم. فتعاليم المسيح والرسل تشير إليه بصفة مستمرة، والاستشهاد به متكرر. ودون أدنى مناقشة، وكأن الأمر طبيعـي تمامـاً، انتقلت سلطة العهد القديم من الجماعة اليهودية إلى الكنيسة المسيحية من خلال تعليم المسيح والرسل. فاصطحب الإنجيل العهد القديم ولم يكن ممكناً أن يُقبل الإنجيل أو يُعترف به دون العهد القديم. أليس الإنجيل في نهاية المطاف تحقيق مواعيـد العهـد القديم؟ فبدون العهد القديم يُضحى الإنجيل وكأنه معلق في الهواء. فالعهد القديم هو القاعدة التي يستند إليها الإنجيل، والجذر الذي منه ينمو. فحيثما انفتحت الأبواب للإنجيل كانت كتابات العهد القديم موجودة، واعتبرت علـى الفـور ودون أدنى معارضة كلمة الله. وبعبارة أخرى، فإنه لم يوجد ما يمكن تسميته كنيسـة العهـد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الجديد دون الكتاب المقدس، فمن البداية كان الناموس والمزامير والأنبياء في حوزة تلك الكنيسة.

وسرعان ما أضيفت كتابات الرسل إلى أسفار العهد القديم. وكانت بعض تلك الكتابات مثل الأناجيل والرسائل العامة موجهةً إلى الكنيسة كلها، فيما كان بعضها الآخر، مثل الرسائل، موجهاً إلى كنائس معينة مثل رومية، وكورنثوس وكولوسي وأماكن أخرى.

وكان من الطبيعي أن كل هذه الكتابات، وقد صدرت عن رسل أو أشخاص اتصلوا بالرسل، ممن ذاع صيتهم من البداية في الكنائس المسيحية، كانت تُقرأ جهراً في الاجتماعات، وأنها كانت تُرسل أحياناً إلى كنائس أخرى ليقرأوها. ولذلك، على سبيل المثل، يطلب الرسول بولس نفسه أن يُرسَل الخطابُ الذي كتبه إلى كنيسة كولوسي إلى كنيسة لاودكية وأن يطلع الكولوسيين على الرسالة التي كتبها إلى لاودكية، والتي هي رسالة أفسس على الأرجح (كو 4: 16)، كما يشير بطرس الرسول في (2 بط 3: 15، 16) لا إلى رسالة واحدة وصلت مؤخراً من بولس الرسول إلى الذين يكتب إليهم، بل إلى رسائل أخرى كتبها بولس الرسول تتضمن التعليم نفسه الذي يقدمه بطرس الرسول، وإن كانت أحياناً يصعب فهمها فيحرّفها غير المتعلمين وغير الثابتين. ولا يمكننا بطبيعة الحال أن نستنتج أن رسائل بولس الرسول كانت قد جمعت في ذلك الوقت، إلا أنه يمكننا بطبيعة الحال أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

نستنتج أن كتابات بولس الرسول كانت معروفة في دائرة أوسع بكثير من الكنائس المحلية التي كتبت إليها كل رسالة. وطبيعي أيضاً أن كنائس تلك الحقبة الأولى قد بلغتها معرفة الإنجيل إلى حد كبير من الرسل ومن تلاميذهم.

إلا أنه عندما مات الرسل، وتوقف وعظهم، تزايدت أكثر فأكثر أهمية كتاباتهم. ومن واقع الشهادات التي وصلت إلينا من منتصف القرن الثاني نعلم أن الأناجيل، وكذلك الرسائل بعد ذلك، كانت تُقرأ بانتظام في اجتماعات المؤمنين، وكانوا يستشهدون بها لإثبات هذه الحقيقة أو تلك، وقد اعتبرت كتابات موثوقاً بها تماماً ككتابات العهد القديم على قدم المساواة. وفي أواخر القرن الثاني الميلادي، اعتُبرت كتابات العهد الجديد مع كتابات العهد القديم "كلّ الكتاب" وأنها "أساس الإيمان ودعامته" وأنها الكتب المقدسة، وكانوا يقرأونها بانتظام في الخدمات الدينية (إيريناوس، كليمندس الاسكندري، ترتليان). ونعلم طبعاً أنه كان هنالك اختلاف في وجهات النظر بشأن بعض الأسفار (العبرانيين، يعقوب، يهوذا، بطرس الثانية، يوحنا الثانية، والثالثة، والرؤيا، وبعض الكتابات الأخرى التي اعتُبرت في ما بعد كتابات مزيفة أو أبوكريفية)، فظلوا لمدة طويلة مترددين فيما إذا كانوا يقبلونها ضمن الكتب المقدسة أم لا. إلا أنه، في هذا الأمر أيضاً، اتضحت الحقائق تدريجياً وتحقق الإجماع في الرأي. وجمعت الكتابات المعترف بها بوجه عام تحت اسم القانون (أي قاعدة الحق والإيمان) وتم تسجيل ذلك وتقريره في مجمع لاودكية في عام 360 م وفي مدينة هيبو ريجايوس في نوميديا سنة 396 م، ثم في قرطاجة سنة 397 م.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وتشكّل كتابات العهدين القديم والجديد أساس الأنبياء والرسل الذي تقوم عليه الكنائس، أو تدّعي القيام عليه، في شركتها بعضها مع بعض. فقد اعترفت الكنائس كلها، في إقرارات إيمانها، بالسلطان الإلهي لهذه الكتب المقدسة، واتخذتها قاعدة مؤتمنة للإيمان وللحياة. ولم يكن هنالك اختلاف أو نزاع حول هذه العقيدة في الكنائس المسيحية. وفي ما مضى، لم يكن هنالك، هجوم على الكتب المقدسة باعتبارها كلمة الله، إلا من خارج الكنيسة، من بعض الفلاسفة الوثنيين أمثال سلوس وبروفيروس في القرن الثاني. أما من داخل الكنيسة فلم يظهر مثل هذا الهجوم قبل القرن الثامن عشر.

****

لم تتسلم الكنيسة الكتب المقدسة من الله حتى تركن إليها في بساطة، أو حتى تدفن هذا الكنز في التراب وهذا أشنع، فالكنيسة مدعوة، على نقيض ذلك لتحفظ كلمة الله لتشرحها، لتعظ بها، لتطبقها، لتترجمها، لتنشرها، ولتنصح بدراستها، ولتدافع عنها، وباختصار لتعمل على انتصار فكر الله الموجود في الكتب المقدسة في كل آن ومكان على أفكار البشر. فكل العمل الذي تجد الكنيسة نفسها مدعوة لأن تقوم به هو أن تبذل جهدها في ما يتعلق بكلمة الله وان تقوم بخدمة الكلمة. فإنها خدمة للكلمة عندما نعظ بها وسط جماعة المؤمنين، وعندما نفسرها، ونطبقها، وعندما نتشارك بها في علامات العهد، وعندما نتمسك بها في التأديب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الكنسي. وبمعنى أشمل، هنالك ما هو أكثر من ذلك مما يمكن أن نعتبره جزءاً لا يتجزأ من خدمة الكلمة، فيتحقق هذا مثلاً عندما نطبق الكلمة ونمارسها ونخضع لسلطانها في قلوبنا وحياتنا، في مهنتنا وعملنا، في البيت والحقل والمكتب، في العلوم وفي الفنون، في الدولة وفي المجتمع، في أعمال الرحمة وفي إرساليتنا في قلب العالم، وفي كل مناحي حياتنا ومجالاتها. فيجب أن تكون الكنيسة عمود الحق وقاعدته (1 تي 3: 15). وهذا يعني أن تكون القاعدة والأساس الذي يحمل الحق ويحافظ عليه ويثبته في مواجهة العالم. وعندما تهمل الكنيسة هذه الحقيقة وتتناساها، فإنها بذلك تتخلى عن واجبها وتقوِّض كيانها ووجودها.

وعندما تتراخى الكنية في واجبها هذا، تدب الاختلافات في وجهات النظر حول معنى كلمة الله. ومع أن الكنيسة وُهبت موعد الروح القدس الذي أعطى لها ليرشدها إلى كل الحق، فإن هذا لا يعني أن الكنيسة – سواءٌ كلها أو بعض أجزائها – قد نالت عطية العصمة. فقد ظهرت الهرطقات المختلفة التي نبعت من خلفية وثنية أو يهودية حتى في كنائس العصر الرسولي. وهذان هما التياران اللذان يهددان الكنيسة من هذا الجانب أو ذاك خلال كل العصور، وهذا ما يجب أن تتجنبه الكنيسة بيقظة كاملة وعناية فائقة.

وفي مواجهة مثل هذه الهرطقات، سواء من اليمين أو اليسار، يجب على الكنيسة أن تتكلم في تصميم كامل ووضوح تام، وتُبرز الحق الذي يقدمه الله نفسه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في كلمته. وتحقق الكنيسة هذا عن طريق مجامعها الصغرى أو الكبرى (السنودسات)، والتي فيها تقرر، طبقاً لما تعتقده، ما يجب التمسك به كحق إلهي، وبالتالي كتعليم بشأن موضوع معين، وهكذا يقود الحق الموجود في الكتب المقدسة كل من يؤمنون به ويقبلونه إلى إقرار أو قانون للإيمان. (إن إقرار الإيمان هو مسؤولية كل المؤمنين كما أن هذا ما تمليه عليهم قلوبهم). إن من يؤمن بحق بكل قلبه ونفسه لا يمكن إلا أن يقر بإيمانه، أي يشهد للحق الذي حرره، وللرجاء الذي غرسه هذا الحق في قلبه[1]. وعلى ذلك فكل كنيسة وكل مؤمن – إن كانت عنده شهادة الروح القدس يعترف ويقر بأن كلمة الله هي الحق. وإذ تنمو الأخطاء والهرطقات في دهاء متزايد، تجد الكنيسة نفسها مضطرة أكثر فأكثر لأن يزداد اهتمامها بالحق الذي تعترف به وتصوغ إقرارات إيمانها في عبارات محددة لا تحتمل التأويل. وكان من الطبيعي أن إقرار الإيمان الشفوي أصبح إقراراً مكتوباً تحت ضغط الظروف.

ونعلم أن هنالك من عارضوا، لأسباب مختلفة، أمر صياغة مثل هذه الإقرارات والحفاظ عليها. فعلى سبيل المثال، قالت جماعة الريمونستراتز الهولندية[2]، إن أي إقرار إيمان يتعارض مع السلطة المطلقة للكتاب المقدس، ومع حرية الضمير، ويعوق النمو في المعرفة. إلا أن مثل هذه الاعتراضات تتأسس على سوء فهم

---

[1] - **مت 10: 22؛ رو 10: 9، 10؛ 2 كو 4: 13؛ 1 بط 3: 15؛ 1 يو 4: 2، 3.**

[2] - **جماعة الريمونستراتز (أي المعارضين أو المحتجين) جماعة عارضت الفكر الكلفيني ونادت بالفكر الأرميني ورفض آراءهم سنودس دورة عام 1619.**

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للموضوع. فقوانين الإيمان وإقراراته ليس من شأنها أن تدفع الكتاب المقدس إلى الوراء، بل تتمسك به وتحميه من النزوات الشخصية. كما أنها لا تصادر حرية الضمير بل تساندها في مواجهة كل أنواع الأرواح المُضلَّة التي تعمل على تضليل النفوس الضعيفة التي تجهل الحقائق. وأخيراً فإن إقرارات الإيمان لا تعوق النمو في المعرفة، ولكنها تحفظ المعرفة كي تنمو في الإطار الصحيح، كما أن إقرارات الإيمان يعاد فحصها وتتم مراجعتها في ضوء الكتاب المقدس باعتباره المقياس الوحيد للإيمان. ويمكن أن يتم هذا الفحص والمراجعة في أي وقت، وإن كان ذلك يجب أن يتم بالطرق المشروعة والتي لها ما يبررها.

وقانون الإيمان الرسولي (الإثنا عشر بنداً) هو أقدم إقرارات الإيمان المسيحية. و لم يقم الرسل أنفسهم بصياغته، ولكنه نشأ في بداية القرن الثاني. ونما من الوصية الخاصة بالمعمودية التي نجدها في (مت 28: 19) وكان إقرار الإيمان أصلاً أقصر مما هو عليه اليوم، وإن كانت نقاطه الأساسية هي إياها بعينها. فقد كان خلاصة قصيرة للحقائق العظيمة التي تقوم عليها المسيحية،و من هذا المنطلق فإنها ما زالت الأساس المشترك والرابطة التي لا تنفصم لوحدة المسيحية جمعاء. وأضيفت إلى قانون الإيمان الرسولي هذا أربعة قوانين أخرى للإيمان ولكلها صفة المسكونية (أي العمومية) وكلها تقبلها كنائس كثيرة. وهذه الأربعة هي: قانون إيمان مجمع نيقية عام 325، ثم القانون المعروف باسم قانون الإيمان النيقوي وهو الذي وإن كان قد اشتمل على قانون نيقية إلا أنه في الواقع أشمل منه وظهر في حيز الوجود في وقت لاحق له بكثير،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وقانون مجمع خلقيدونية عام 451،[1] ثم أخيراً قانون الإيمان المعروف باسم قانون الإيمان الأثناسي.

وتقدم قوانين الإيمان هذه كلها العقيدة بشأن المسيح والثالوث، وهما القضيتان اللتان انشغلت بهما الكنيسة في قرونها الأولى. وما هو تفكيركم بشأن المسيح؟ كان هذا أهم سؤال يجب على الكنيسة أن تجيب عنه بينها وبين نفسها وفي مواجهة العالم بأسره على أساس كلمة الرب.

انضم إلى جانب وجهة النظر اليهودية إزاء هذه القضية كل من كانوا على استعداد لأن يعترفوا بالمسيح كإنسان، إنسان مرسل من الله، إنسان نال مواهب غير عادية، يؤيده روح النبوة، مقتدر في الأفعال والأقوال، إلا أنه في ما عدا ذلك لا يعدو كونه إنساناً. أما من الجانب الوثني، فكان هنالك من كانوا على استعداد لأن يعترفوا بيسوع كابن الآلهة، كائن إلهي جاء من السماء، وأعلن عن نفسه، كملائكة العهد القديم، لفترة وجيزة على الأرض في جسد غير حقيقي. إلا أن هؤلاء لم يكونوا على استعداد لأن يعترفوا به باعتباره ابن الآب الوحيد الذي تجسد. وفي مواجهة هاتين الهرطقتين، كان على الكنيسة أن تتمسك، تمشياً مع الكتاب المقدس، بأن المسيح

[1] - قانون الإيمان الخلقيدوني لا تقبله الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وبالتبعية الكنيسة الحبشية كما لا يقبله السريان والأرمن الأرثوذكس. وهذه الكنائس تتمسك بفكرة الطبيعة الواحدة للمسيح (المترجم).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كان بالحقيقة ابن الله الوحيد، هذا من ناحية وأنه من الناحية الأخرى تجسد فعلاً وحقيقة. وكان هذا هو إقرار إيمان الكنيسة الذي عبرت عنه في قوانين الإيمان بعد فترة طويلة من الصراع في سبيل تحديد المفردات المناسبة للتعبير عن هذه القضية. فرفضت،كما فعل يوحنا الرسول، كل التعاليم المعادية للمسيحية التي أنكرت بأن ابن الله قد ظهر في الجسد (1 يو 2: 18، 22؛ 4: 2، 3). وهكذا احتفظت الكنيسة المسيحية، عن طريق صياغة قوانين الإيمان هذه وتأكيدها، بجوهر الديانة المسيحية، وما تتميز به عن غيرها من الديانات. وهذا هو ما يجعل للمجامع والسنودسات التي قدمت لنا هذه القوانين مثل هذه الأهمية الجوهرية في المسيحية جمعاء. فهنالك اتفاق في الكنائس المسيحية بشان الحقائق التي تلخصها قوانين الإيمان الرسولية، والعقيدة بشان شخص المسيح، والثالوث، وهذا يربط الكنيسة معاً في مواجهة اليهودية والوثنية. وهذه هي الوحدة التي يجب ألا ننساها أو نتغافل عنها، بسبب الانقسامات المؤسفة التي قد تفصل كنيسة عن الأخرى.

إلا أنه من منطلق هذه القاعدة المشتركة نمت كثير من الاختلافات والانقسامات. وأدى تطبيق التأديب الكنسي إلى انفصال جماعة المُنتانيين في النصف الثاني من القرن الثاني، والنوفاتيين في منتصف القرن الثالث، والدوناتيين في القرن الرابع. أما ما هو أخطر من كل ذلك بكثير جداً فهو الانقسام الذي دب شيئاً فشيئاً بين الكنيسة في الغرب والكنيسة في الشرق. وقد أسهمت في ذلك أسباب كثيرة. فهنالك أولاً ذلك النفور المتبادل بين اليونانيين واللاتين، والتوتر المستمر بين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

القسطنطينية وروما، والصراع على السيادة بين البطاركة والبابا. وأضيف إلى ذلك بعض الخلافات الأقل شأناً من حيث العقيدة والعبادة. وكان أهم هذه هو إقرار الكنيسة اليونانية بأنه في الكيان الإلهي ينبثق الروح القدس من الآب فقط، لا من الآب والابن كما علَّمت الكنيسة الغربية. وإذا بالانقسام الذي كان يحدث بين وقت وآخر يصبح انقساماً دائماً عام 1054. والكنيسة الشرقية، التي تفضل أن تعتبر نفسها الكنيسة الأرثوذكسية (المستقيمة العقيدة) لأنها تفترض أنها استمرت أمينة لتعاليم الكنيسة الأولى، عانت كثيراً من الخسائر، إذ تكونت داخلها جماعات كثيرة (كالمسيحيين الأرمن والنسطوريين في سوريا، وأتباع توما من مسيحيي بلاد فارس، واليعاقبة الذين نادوا بالطبيعة الواحدة في سوريا، والأقباط في مصر، والموارنة في لبنان). كما أثر عليها أيضاً ظهور الإسلام الذي فتح القسطنطينية واستولى عليها عام 1453. إلا أن الكنيسة الشرقية حققت كسباً كبيراً إذ قَبِلَ السلافيون المسيحية، وإذ استمرت موجودة كالكنيسة الأرثوذكسية في اليونان وتركيا وروسيا وفي بعض البلاد الأصغر من ذلك كبلغاريا، ويوغوسلافيا ورومانيا.

****

أما في الغرب فقد ازدادت الكنيسة الكاثوليكية اتساعاً بقيادة أساقفة روما. وبعد فترة اضطهاد طويلة جاءت حقبة من الهدوء والامتيازات وعلو الشأن على اثر قبول الإمبراطور قسطنطين المسيحية. ومع أن الاتجاهات الدنيوية تغلغلت في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الكنيسة، إلا أن الكنيسة حققت الكثير من عصر قسطنطين إلى عصر الإصلاح. وكما قاومت الكنيسة الوثنية وانتصرت عليها في القرون الأولى، كذلك عملت بعد ذلك بجد لتربح الشعوب إلى المسيحية، وتنشر الحضارة في أوربا، كما حافظت على الحقائق العظمى التي تنادي المسيحية بها، وفي ثبات يُمتَدح حرصت على استقلال الكنيسة، وتعاونت تعاوناً مؤثراً في تنمية الفنون والعلوم المسيحية. إلا أنه رغم كل هذه الأمور التي تستحق الثناء، لا يمكن أن ننكر أن الكنيسة وهي توسع رقعتها وتزيد من قوتها وسطوتها، سارت في اتجاهات بعيدة عن اتجاهات الكنيسة الرسولية الأصلية. وبدا هذا واضحاً في مناحٍ ثلاثة:

أولاً: رفعت الكنيسة الكاثوليكية شيئاً فشيئاً من شأن التقليد حتى أصبح قاعدة مستقلة للإيمان، جنباً إلى جنب مع الأسفار المقدسة وأحياناً في مواجهتها. فهنالك تعاليم وممارسات في الكنيسة الكاثوليكية مما لا يمكن تأييده ولا بآية واحدة من الكتاب المقدس مثل القداس، وعزوبية من يهتمون بالشئون الدينية، ورفع البعض إلى مرتبة القديسين (من قبل الكنيسة)، والحبل بلا دنس بمريم العذراء، وما شابه ذلك. وهم يتمسكون بهذه العقائد والممارسات على أساس "التقليد". ويقولون إن التقليد لا يشمل سوى "ما كان يؤمَن به في كل مكان، ودائماً، ومن قبل الجميع". والبابا، في آخر المطاف، هو الذي يحدد ما يمكن اعتباره ضمن التقليد أم لا.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وهكذا غيرت روما العلاقة بين الكتاب المقدس والكنيسة. فلم يعد الكتاب المقدس كتاباً لا غنى للكنيسة عنه، ولكنه مجرد كتاب نافع للكنيسة، فيما أصبحت الكنيسة لا غنى عنها بالنسبة للكتاب المقدس. فليس للكتاب المقدس أي سلطان سوى متى منحته الكنيسة مثل هذا السلطان بأن تعلن بأنه يستحق التصديق. فيقولون إن الكتاب المقدس غامض في ذاته، ويحتاج إلى الكنيسة لتوضحه، فلا أسبقية له على الكنيسة كما أنها لا تتأسس عليه، بل يقولون على نقيض ذلك أن للكنيسة أسبقية على الكتاب المقدس وتشكل الأساس الذي يقوم عليه الكتاب المقدس. فإن كان الأنبياء والرسل قد نالوا عطية الوحي، فإن البابا أيضاً، عندما يتحدث بصفته الرسمية بحكم وظيفته البابوية ينال تأييداً خاصاً من الروح وبذلك يكون معصوماً. فللكنيسة اكتفاء ذاتي، ويمكنها، عند اللزوم، أن تمضي في مسيرتها دون الكتاب المقدس فهي وسيط الخلاص الواحد الحقيقي الكامل. وتمتلك الكنيسة وتوزِّع فوائد النعمة المتضمَّنة في الفرائض المقدسة. فالكنيسة هي الواسطة الواحدة للنعمة، وهي الكيان الإلهي وملكوت الله على الأرض.

ثانياً: إن لم تكن الكنيسة الكاثوليكية قد فقدت تماماً لب الإنجيل، أي نعمة الله المجانية، وتبرير الخطاة بالإيمان وحده، فإنها قد مزجته بعناصر غير نقية، وبذلك أفسدت التمييز بين الناموس والإنجيل. ولقد أصاب هذا التشويه الإنجيل الأصيل في قرون المسيحية المبكرة، إلا أن هذا نما كثيراً بمرور الزمن واكتسب التأييد الرسمي. ففي الصراع بين أغسطينوس وبيلاجيوس، ذلك الصراع الذي ما زال قائماً، وقفت

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كنيسة روما شيئاً فشيئاً، ولاسيما بعد الإصلاح، إلى جانب بيلاجيوس، وذلـــك لا بالكلام فقط بل بالعمل. نعم! إن الله يعطى المقدرة لمن يسمع الإنجيل ليعطي ظهره للخطية والذات ويتجه نحو الله والنعمة، ويثبت في الحياة الجديـــدة، إلا أن الإرادة والثبات والمثابرة، إنما هي مساهمة الإنسان نفسه في الخلاص. ولذلك فإن الإنســـان يجب أن يكتسب الدخول إلى ملكوت السماء عن طريق الأعمال الصالحة.

وتعتبر كنيسة روما أن هنالك نوعين من الأعمال الصالحة. فهنالك حفظ الوصايا المألوفة التي تنطبق على الجميع، وهنالك الأعمال التي تتعلق بحفظ بعض ما أشار به المسيح بالإضافة إلى أعمال الناموس مثل العزوبية والفقر والطاعة. والنـــوع الأول أسلوب طيب للحياة، إلا أن الثاني أفضل وأصعب، وإن كان أقصر وأكثـــر أمناً. والنوع الأول يُقصد به العلمانيون، أما الثاني فيخص رجال الدين -الرهبـــان والراهبات. وكل من يسلك سبيل الأعمال الصالحة هذا ينال دائماً من الكنيسة، عن طريق الفرائض المقدسة، قدراً من النعمة بحسب استحقاقه. وأخيراً فإن المرء يصل إلى الملكوت السماوي متى ثبت للنهاية، ولا يتحقق هذا في وقت تجديده ولا في وقت موته، ولكنما بعد سنوات من العذاب في المطهر.

ثالثاً: وسرعان ما فصلت الكنيسة الكاثوليكية بين الإكليروس والعلمانيين. فليس المؤمنون بالمعنى العام بل الإكليروس هم الكهنة بالمفهوم الصحيح. وهنالـــك تصنيفات مختلفة داخل إطار الإكليروس.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والكلمتان شيخ وأسقف كلمتان متبادلتان في العهد الجديد وتطلقان علي من يشغلون الوظيفة الكنسية نفسها. إلا أنه في عصر مبكر، هو القرن الثاني الميلادي، أُغفلت هذه الوحدة، ورفعت وظيفة الأسقفية إلى مستوى أعلى من الشمامسة والشيوخ (الذين عرفوا باسم الكهنة) واعتبروا تدريجياً خلفاء الرسل والمحافظين على التقليد. وأصبح الأساقفة أعلى مركزاً من الكهنة برتبهم المختلفة. وأقل شأناً من رؤساء الأساقفة والبطاركة وأخيراً البابا. وتبلغ الرئاسات الكنسية قمتها في البابا، الذي أعلنت كنيسة روما رسمياً في المجمع الفاتيكان المنعقد بروما عام 1870 أنه معصوم من الخطأ. فهو أبو الكنيسة كلها (البابا: الأب). "ورئيس الكهنة" خليفة بطرس، وهو وكيل المسيح في السلطة على الكنيسة، وهو أعلى سلطة تشريعية وقضائية. وهو الذي يدير شئون الكنيسة كلها بمعاونة مجموعة كبيرة من الموظفين الكنسيين كالكرادلة، والأساقفة، ووكلائهم وغيرهم.

هذه الأخطاء التي بدأت كانحرافات طفيفة عن جادة الصواب، تفاقمت وازدادت سوءاً على مر القرون. وتطورت ونمت وما زالت تتطور وتنمو في الاتجاه الذي يجعل الكنيسة المسيحية الكاثوليكية القديمة تصبح بصفة مستمرة الكنيسة التي تخضع لكنيسة روما تماماً دون انفصال عنها، الكنيسة البابوية، والتي نجد فيها العذراء مريم، أم يسوع، والبابا كبديلين عن المسيح لدرجة يتوارى معها شخص المسيح وعمله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وهذه البدع أو الأخطاء الثلاثة تطغى على وظائف المسيح كنبي، وكاهن، وملك وتتعدى عليها.

****

و لم ينمُ هذا الانحراف ويتطور دون مجهودات مستمرة جادّة ومتجددة تقف ضده. و لم تكن القرون الوسطى بصفة خاصة خالية من الأشخاص والاتجاهات التي تهدف نحو إدخال عناصر تسير بالكنيسة نحو ما هو أفضل. إلا أن كل هذه الحركات لم تُصِب إلا نجاحاً طفيفاً. وبعضها كف عن النشاط دون تأثيرات عملية تذكر، فيما أُخمدت بعض الحركات الأخرى بعنف وكُتمت أنفاسها بالدماء. وقد استُخدمت أساليب الكبت والإبادة نفسُها ضد حركة إصلاح القرن السادس عشر، لكنها لم تنجح هذه المرة. كان الوقت مناسباً ليحدث إصلاح، فقد كانت الكنيسة قد بلغت مستوى منحطاً من الروحانية والأخلاق حتى لم يعد شعبها نفسه يثق بها. وكان هنالك إحساس في كل مكان أن مثل هذا ينبغي ألا يستمر، كما كان هنالك شوق عارم لأن يحدث شيء ما، وقد سخر كثيرون في إيطاليا مثلاً من الديانة المسيحية، وسقطوا فريسة لعدم الإيمان. ولا يمكن أن نتصور ما كان يمكن أن يحدث للكنيسة دون الإصلاح الذي كان بركة حتى لكنيسة روما أيضاً وما زال كذلك حتى اليوم.

و لم يكن الإصلاح هو الحركة الوحيدة العظيمة التي أتت بها هذه الحقبة. فلقد سبقت الإصلاح وواكبته وتبعته حركات أخرى كل منها لها نفس الأهمية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

داخل نطاقها الخاص. فاكتشاف فن الطباعة، واكتشاف البارود، وقيام طبقة الشعب المتوسطة، واكتشاف أمريكا، وعصر النهضة في الآداب والفنون، والعلوم الطبيعية الحديثة والفلسفة، كل هذه الحركات والأحداث الهامة كانت دليل صحوة إدراك الذات والتحول من القرون الوسطى إلى العصر الحديث.

ومع أن حركة الإصلاح تقدمت على أساس مبادئها الخاصة، واتجهت نحو أهدافها الخاصة، فإن كل هذه الحركات حملت حركة الإصلاح وساندها.

وبالإضافة إلى ذلك - وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية - وجه الإصلاح اهتمامه نحو جذور المشكلة في معارضته لكنيسة روما. فلم يقنع الإصلاح بتحسين المظاهر الخارجية بل أكد ضرورة إزالة سبب الفساد. وليتحقق ذلك كان الإصلاح في حاجة إلى نقطة انطلاق قوية ثابتة، إلى معيار أو مقياس يمكن الاعتماد عليه، وإلى مبدأ إيجابي. ووجد الإصلاح كل هذا، في مواجهة تقاليد كنيسة روما، في كلمة المسيح التي اعترها (الإصلاح) جديرة بالقبول في ذاتها، ولأجل ذاتها، وليس على أساس شيء آخر: فهي ضرورية لحياة الكنيسة وخيرها، وهي كافية في ذاتها وواضحة. كما وجد الإصلاح أيضاً كل هذا، في مواجهة الأعمال الصالحة التي اعتبرتها روما أساساً خلاص البشر، في عمل المسيح الذي اعتبره "الإصلاح" عملاً كاملاً لا يحتاج لأن يكمله البشر. وأخيراً وجد الإصلاح كل هذا، في مواجهة البابا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الذي اعتبر نفسه مثل المسيح المعصوم من الخطأ، في روح المسيح الذي انسكب على الكنيسة، وهو يقود أولاد الله كلهم إلى كل الحق.

و لم يجد الإصلاح هذا المبدأ الإيجابي عن طريق البحث العلمي والتأمل، بل عن طريق اختبار القلب المثقل بالجرم والإثم وقد وجد المصالحة والغفران في النهاية في نعمة الله المجانية. فلم يكن الإصلاح حركة فلسفية أو علمية، بل تميز بكونه حركة دينية أخلاقية. وكما يحدث دائماً في حالات الانقسام والانفصال، انضم كثيرون إلى الحركة بدوافع لا تتصف بالنقاء والشرف. إلا أن من شكلوا لب الإصلاح والعنصر الأساسي فيه كانوا أولئك المتعبين والرازحين تحت نير روما، أولئك الذين وجدوا مرة أخرى راحة لنفوسهم عند قدمي المخلص.

كان اختبار غفران الخطايا هذا كافياً للوثر. فكان كافياً له أنه وجد "إلهاً محباً منعماً". نعم! لقد استطاع من هذه النقطة المتميزة التي اتخذها لنفسه أن يتطلع في حرية أكبر وباتساع في الأفق ليرى العالم كله أكثر مما رأته روما التي اعتبرت أن العالم الطبيعي له دائماً الصفة الدنيوية وما يشوبها من دنس. إلا أنه، وقد اعتمد تماماً على التبرير الذي حصل عليه بالإيمان فقط، ترك كل ما هو دنيوي عالمي - الفن والعلم والدولة والمجتمع - لحال سبيله. فقد حصر الإصلاح اللوثري نشاطه في حدود استعادة وظيفة الوعظ لمكانتها. وإذ وجد في الكتاب المقدس إجابة السؤال: كيف يخلص الإنسان؟ توقف عن بذل أي مزيد من المجهود.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أما بالنسبة لزونجلي وكلفن اللذين قاما بالإصلاح في سويسرا، فقد بدأ نشاطهما حيث توقف النشاط اللوثري. وقد وصل كلاهما كلوثر إلى الإصلاح لا عن طريق المجادلات العقلية بل عن طريق اختبار الخطية والنعمة، الإحساس بالذنب والتمتُّع بالمصالحة. وكان هذا الاختبار هو نقطة الانطلاق بالنسبة إليهما، إلا أن هذا لم يكن نقطة توقف ولا نهاية المطاف عندهما. فتقدم كلاهما إلى ما هو أبعد من ذلك، سواء للوراء أو للأمام. فمن وراء نعمة الله التي تعبّر عن نفسها بغفران جرم الخطية، هنالك سيادة الله، ذلك الكائن غير المحدود الذي يستحق العبادة في كل كمالاته، وفضائله. ورأى زونجلي وكلفن أنه إن كان لله السيادة في عمل الخلاص، فإن له السيادة أيضاً – دائماً وفي كل مكان – في الخلق وفي إعادة الخلق. وإن تربع على عرش قلب الإنسان، فينبغي أن يكون كذلك في عقله وفي عمل يده، في البيت والمكتب والحقل، وفي الدولة وفي المجتمع، وفي الآداب وفي العلوم. فلم يكتفيا بالإجابة عن التساؤل: كيف يخلص الإنسان؟ بل قادهما ذلك لأن يعودا إلى سؤال آخر أسمى وأعمق وأشمل، كيف يمكن أن يكون، لله المجد الذي يستحقه ويليق به؟ ولذلك فبالنسبة لزونجلي، وأكثر من ذلك بالنسبة لكلفن، فإن عمل الإصلاح ما بلغ سوى نقطة البداية عندما حصلا على سلام القلب في دم الصليب. وبدا العالم وكأنه منفتح أمامهما، لا ليُترَك لحال سبيله ولكن ليُقتحَم ويقدَّس بكلمة الله والصلاة. فبدا كل منهما في بيئته المباشرة بأن وجّه جهده للكنيسة والمدينة حيثما كان يعيش. فلم يستردا لوظيفة الوعظ مكانتها فقط، بل تجاوزا ذلك إلى خدمة العبادة والتأديب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الكنسي. ولم يصلحا حياة يوم الأحد الدينية فقط، بل الحياة المدنية والاجتماعية في أيام الأسبوع الأخرى، ولم يصلحا مجرَّد حياة المواطنين الخاصة بل الحياة العامة للدولة. وانتشرت حركة الإصلاح من موطنهما إلى بلاد وأماكن أخرى. فقد حُصِر الإصلاح اللوثري نشاطه بصفة رئيسية في ألمانيا والدانمارك والسويد والنرويج. أما إصلاح كلفن فوجد قبولاً في إيطاليا وإسبانيا والمجر وبولندا وسويسرا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وانجلترا واسكتلندا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا. ولولا تصدي اليسوعيين لحركة الإصلاح بهجومهم المضاد في بلدان كثيرة ودفعهم حركة الإصلاح إلى الوراء في محاولة لتحطيمها، لأنهت حركة الإصلاح سيادة روما العالمية بصفة نهائية وبلا رجعة.

ولم تتحقق لحركة الإصلاح مثل هذه الفتوحات. فلقد هاجمت كنيسة روما الإصلاح من البداية. وفي تعمد ووعي كاملين اتخذت روما موقفها المضاد للإصلاح في المجتمع التريدنتيني، ومن ذلك الوقت تقدمت في نفس الاتجاه الذي حددته لنفسها عندئذ. وفضلاً عن ذلك، فإن حركة الإصلاح أضعفت نفسها بانقساماتها الداخلية والمشاحنات التي لا نهاية لها. فقد ظهرت جنباً إلى جنب مع إصلاح الحركات السوسينيانية والأنابابتية. وكانت نقطة البداية لكل من هاتين الحركتين هي نفسها نقطة البداية الأساسية للإصلاح، وهي فكرة الصراع الذي لا يمكن بلوغ أي توفيق بشأنه ما بين الطبيعة والنعمة، وهو نفس التعارض ما بين الخليقة الأولى والخليقة الجديدة، ما هو بشري وما هو إلهي، العقل والإعلان، الأرض والسماء، البشرية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والمسيحية، وغير ذلك من الصور والأشكال التي يمكن أن نعبّر بها، مما استمر الإحساس به في عصر الإصلاح وما زال صراعاً نشطاً حتى اليوم. ولم تكن الحركات الانفصالية والانقسامات التي ظهرت في القرن السادس عشر هي الوحيدة. فقد تزايدت هذه قرناً بعد قرن، فظهرت في القرن السابع عشر الحركة الأرمينية في هولندا، والحركة "الاستقلالية" في انجلترا والحركة "التُقوية" في ألمانيا. ثم أضيفت إلى هذه في القرن الثامن عشر حركة هيرَنْهوت، وحركة الميثودست، وحركة سويدنبرج، واكتسح في نفس هذا القرن فيضان المذهب الذي نادى بالإيمان بدين طبيعي مبني على العقل وليس على الوحي والذي يسمى بمذهب الربوبية Deism جميع الكنائس. وحدثت نهضة دينية قوية بعد الثورة الفرنسية في بداية القرن التاسع عشر شملت كنيسة روما والكنائس البروتستانتية. ولكن رغم ذلك توالت الانقسامات فظهرت الحركة الدرابية وحركة أرفينج والمورمونية والحركة الأرواحية (أي الاعتقاد بأن هنالك اتصالاً بين أرواح الموتى والحياء) وغيرها من مختلف الجماعات التي تساقطت كأجزاء متناثرة من كنائس كان الضعف قد أصابها وقد استنفد قوتها روح الشك واللامبالاة الذي دب داخلها. أما من خارج الكنيسة فقد نظمت قوة فكرة الأحدية Monism – سواء في صورتها المادية أو في صورة فكرة وحدة الوجود Pantheism – صفوفها لتوجِّه ضربة قاضية للديانة المسيحية كلها.

وبذلك بدا وكأن كلّ أمل في وحدة كنيسة المسيح وعموميتها قد ضاع تماماً. . . إلا أن هنالك عزاءً واحداً، فالمسيح يجمع خاصته من كل الأمم والقبائل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والشعوب والألسنة وسيأتي هو بهم جميعاً، وسوف يسمعون صوته. فتكون رعية واحدة وقطيع واحد، وراعٍ واحد (يو 10: 16).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008